مولانا السيد

ـ حليف الشيطان ـ

مولانا السيد

ـ حليف الشيطان ـ

رواية

رياض القاضي

مجموعة النيل العربية

إهداء

إلى رجل المراحل الصعبة

الملك فيصل الأول

مقدمة لا بُدّ منها

تشعبّت الأمور في العراق حتى ظنّ أهل الباطل بأنهم على حق... ساد رجال الدّين حتى طغوا فأرجعوا البلاد والعباد إلى عصر ما قبل النهضة... بينما دول الغرب تسابقت فيما مضى من القرون في التخلص من الكنيسة وفصل الدّين عن السياسة.. ونقل بلادهم إلى مستوى أعلى وانغرزوا في متاهات التعليم متجاهلين كل أنواع الطائفية، وحققوا نجاحات في بناء الصروح الحضارية التي هشّمت أحلام رجال الدين.. أما في العراق فقد حدث العكس.. بدلًا من أن ينهض البلد بالعلم، طوّحته الأيادي في براثن التفاهات والجهل... وأصبح بلدًا يحتضن مهرّجين على أنهم ساسة، وما هم بساسة بل وصمة عار على رجال السياسة.

في مقدمة هذه الرواية فضلت أن أستشهد بآيات قرآنية تؤكد تعامل البشر مع الشياطين وأنها حقيقة لا بد من الاعتراف بها.. وهناك رجال دين يلجؤون إلى مثل هذه الأمور ويستغلون ضعفاء العقل والقلب.. وما أكثرهم الآن في شرقنا الكسول.

وتعمدت أيضًا أن أستشهد في مقدمة الرواية ببعض من أقوال الملك فيصل الأول عن طبيعة الشـــعب الذي حَكمهُ.. وعن عقول لم تتقبل أي نوع من الحُكّام ســـواء القُســـاة أو الطيبيون.. فهانـــت عليهم أن يفتكوا وينكّلوا برموزهم الوطنية التي تمثّلت بالعائلة الحاكمة من ملوك وأمراء، وبلا رحمة.

اليوم نرى حال دولة بأكملها لا يرتاح لها ســـوى جاهل ولا يُسر بها إلا الخائن.. في كل دقيقة تُولد بدعة، وفي كل لحظة تُســـحق روح بريئة.. حتى فاقت الغطرســـة كل شيء وانقلب في بلادنـــا كل شيء بالعكس.. فالشريف صار خائنًا والخائن ائتمنوه على وطن ضائع.

سيد سامي

شــخصية حقيقية ولكن بدون قرين.. شــخصية تحكي أحداثها في البــصرة «الهارثة».. حيــثُ تهافت الناس عليه مــن كل حدب وصوب، مجّدوه وعظموه حتى باتت صوره أغلى من رغيف الخبز.. وصارت شهرته أعظم من شهرة الحاكم نفسه.

أثــارت شــخصيته إعجاب أهــل المدينة حتى طُبعــت صوره في المهفّات. وباتت مبيعات صوره تفوق صور الإمام «علي» ـ عليه السلام ـ التي غرقت بها الأســواق والأرصفة.. وبات الناس يقصدونه في نيل الــرزق أو لكي يُغــدق عليهم ببعض من الحِــرَز ليقيهم من شر الإنس وفاجعات القدر.

وعندمــا أحضره رجــال الأمن مكبّــلاً بالغُطرة، أمــام مدير أمن البصرة.. سأله الأخير:

ـ كيف قَصدكَ الناس ومــن الذي صنعك.. وكيفَ برزت فجأة في وقت قياسي قصير؟

فأجاب محني الرأس:

ـ سـيدي، الناس هم من رفعوا شـأني.. صنعت يومًا حرزًا باطنه قصاصـة ورقية مكتوب عليها بعض ما أمـلاه عقلي من كلمات ارتجالية خطرت في بالي لحظتها، مُغلّفًا بقطعة قماش أخضر.. أعطيتها لامرأة اشتد عليها المرضُ فجأة.. الصُّدفة وحدها لعبت دورًا في تفعيل الحرز وعندما شُفِيت من مرضها، انتشر صيتي في أرجاء المعمورة بفضلها.. حتى توافدَ عليَّ كبار الرجال زحفًا على الركاب وأغدقوني بالمال والهدايا.

أحاول أن أشير في روايتي بأن المغزى الحقيقي هو حوار مع من يرفضون ما جاء به نص القرآن بأن المنجمين كذبـوا ولو صدقوا.. وأن الدين هو رحمة لا نقمة وأن نشر المذهب بالسـلاح.. كما نراه اليـوم ليس واردًا في قانون الله.. بـل علينا أن نتقبل الآخرين كما هم وليـس كما يأمر «الولي الفقيه» تحت غطاء اللسـان المعسـول وكلمات رنّانة يصدّقها السُّذج ويعظمها الفاسـقون.. فالعقل هدية الله إلينا يخاطبنا به، فلِمَ لا نخاطب الآخرين بالعقل بدل العصبّية؟!.

وأخيرًا أتمنـى ألّا تؤخذ روايتـي على محمل طائفـي.. وإنما أرجو مراجعة أنفسـنا بجدية وعزم، والإقبال على الأمور بعزم ورويّة، قبل أن نُهلك أنفسنا بأنفسنا والله أعلم ما في الصدور.

المؤلف

وَالَّذِيــنَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُــمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِــاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا

النساء الآية 38

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لا يَسَّــمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِــنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

[سورة الصافات: 6-10].

وهذه الآيات تتبع المؤمنين: يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بألســنةٍ جديدة، يحملــون حيّاتٍ، وإن شَربوا شــيْئًا مُميتًــا لا يَضُرّهم، ويضعونَ أيديهم على المرضى فيبْرؤونَ.

إنجيل مرقس 16 - 17 - 18

«إن البلاد العراقيــة من جملة البلدان التــي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعيــة ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية، فهي والحالة هذه مبعثرة القوى، منقسمة على بعضها، يحتاج ساستها أن يكونوا حكماء مدبرين، وفي عين الوقت أقوياء مادة ومعنى، غير مجلوبين لحسيات أو أغراض شخصية، أو طائفية، أو متطرفة، يداومون على سياسة العدل والموازنة، والقوة معًا، على جانب كبير مــن الاحترام لتقاليد الأهالي، لا ينقادون إلى تأثرات رجعية، أو إلى أفكار متطرفة تستوجب رد الفعل».

«الحكومة أضعف من الشــعب ولو كانت البلاد خالية من السلاح لهان الأمر لكنــه يوجد في المملكة 15 ألف بندقية حكومية ولا يوجد لدى الحكومة نصف هذا العدد من البنادق في أي بلد من بلاد الله يمكن أن تكون حالة حكومة وشعب كهذه»

«لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد بل توجد تكتلات بشرية خيالية خالية من أية فكرة وطنية متشــعبة بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة سماعون السوء ميالون للفوضى مستعدون دائماً للانقضاض على أية حكومة كانت.

علينا أن لا ندع مجالًا للأحزاب المصطنعة والصحف والأشخاص ليقوموا بانتقادات غير معقولة وتضليل الشعب وعلينا أن نعطيهم مجالًا للنقد النزيه المعقول ضمن الأدب»

من مذكرات

الملك فيصل الأول

ـ 1 ـ

في ذلك الشرق المتعب..

لا يخاف المرءُ من شيء.. بقدر ما يخاف من الإنس..

يراودهُ إحساس بأنّ الأرواح تحب النار.. حينما طغى لون الأدهم كالعقيق الأسود وبات يكتسح جدران المغارة..

ظلال تتواثب وتتراقص على الجدار من ورائه.. تارة بأنياب كالخناجر طويلة مقوسة، وساعة تتمثل في قط أسود تتوهج عيناها في ضوء الشموع.

ـ 2 ـ

قرية صفراءْ..

صحراءْ.. لم تصلها ذرة علمْ.

يهيم الناس على وجوههم.. باسطين آمالهم بين أيدي الدجلة.

بسطاء.. يغلب الجهل على تلك العقول الساذجة، يخلون من فقه لعلوم الحياة. ويلجؤون إلى البدع في نجواهم وتقربهم إلى الخالق.

الخرافـات لديهم شيءٌ مقدس وخط أحمر لا جـدال فيه.. ومن يلتزم بها سـيدخل الجنّة.. كما تقول اعتقاداتهم، بل وحتى الملكان ناكر ونكير لا وجود لهما، وسيزور الميت أولياء معينون في قبره ويدخل الجنّة بفضلهم.

البدع، الخرافات، الغلو.. ومن ثم الضحك عليهم من قبل من زوّروا نسل الأنبياء ونسبوا أنفسهم إليهم لكي يسهل عليهم سرقة السُّذّج باسم الدّين.

في تلك القرية النائية، تتواجد السباع، سباع آدميّة تلتهم السذجْ.

سـباع تحالفت مع الشـيطان، تعتاش على عقولهم البسـيطة، تأخوا مع الشيطان في تحالف طويل الأمد.

ـ 3 ـ

عز الهواءُ فبدا الفضاءُ خانقًا كالحواري الضيقة.. يلتقط الأنفاس التقاطًا تتوزع عيناه بين الخلاءْ والشرود.. الفضاء خانقًا كأنه ليس خانق. تسري في بدنه رجفة.

صاحب القدمين المفلطحتين، المشققتين، كطمي جاف، يسرع في خطواته في الخلاء، وسط الظلام، قاصدًا أعلى التل، في الوادي الرملي، يحمل بقجة، مثقلة بالزاد، اقترب بحذر من مدخل الغار، كان الخوف الساري في أوصاله يعتصره.. لا شمس لتبدد مخاوف الظلام.. يرتعش قليلًا.. ويكاد يصرخ من طيف يطالعه في الظلام.. هل هو مجرد تخيلات تتولد من شدة الخوف؟ أم فعلًا شبح يطالعه وسينقض عليه في أية لحظة، يحاول أن يخفي ذلك الارتعاش، فوضع البقجة بسرعة أمام المدخل، ليطلق ساقيه للريح.

كأنه يخاف من أن يبتلعه حيوان كاسر، أو..؟ جن.

ـ 4 ـ

(سوميا) خلق الله عز وجل

أبو الجن قبل أن يخلق ـ آدم ـ بحوالي ألفي عام.. وقال الله لـ سوميا: تمنَّ.

فقال ســـوميا: أتمنى أن نرى، ولا نُـــرى، وأن نغيب في الثرى، وأن يصير كهلنا شابًّا.

ولبّى الله عز وجل لـ ـ سوميا ـ أمنيته، وأسكنهُ الأرض لهُ ما يشاءْ فيها.

وكان الجنّ أول من عبد الله على الأرض.

ـ 5 ـ

في دائرة من الشـــموع.. التي تحيط به.. جالسًـــا.. مغمض العينين يتمتم بكلمات غير مفهومـــة.. مبهمـــة، لا يفهمها إلا الجن.. لأنهـــا لغتهم.. ابتدعوها، بعدما حرّفوا كلام الله.

رضي الرجل على نفســـه أن يتحدى خالقه الآن، بدايـــة المعصية بدأت.. ســـيتحدى قدره.. ويحقق لنفســـه الجاه والمكانة التي يطمح إليها.. لا يهم كيف.. المهم أن يكون سيّدًا بين قومه وانتهى.

ـ 6 ـ

لا صــوت إلا صرير الريــاح المُرعبــة، يجلس كشــبح مريض..أنهكه التعب.. إلا أنه ما يزال يتحامل على نفسه لإنهاء ما جاء من أجله.. عيناه جاحظتان ليس خوفًا، بل تلهفًا للقاء الجن ـ القرين ـ حنجرته تضطرب، وخفقــان قلبه بادٍ رغم الظلام الباهت، لا تكاد أضواء الشــموع تكفي لإنارة مساحة المغارة.

يتقطر من أنفه الطويل المعقوف العرق، عيناه عكرتان، كلّما سمع فحيحًا صادرًا من جوف الحيطان، يفتح عينيه وكأنّه ينتظر ظهور الشبح المرتقب بفارغ الصبر.

وبعد انتظار طويل..

أتاه ما كان ينتظر..

منخراه يتحركان من الاضطراب، العرق أغرق وجهه.

همس بصوت خافت:

ـ هل ستظهر؟

ـ لا جواب.

ـ هل سأمكث طويلًا؟

تــردد صدى طويلًا في أرجاء المغارة الصغــيرة.. هب هواء خفيف لفح وجهه المنهك.. أحس بشيء ما سيحدث..

أصبح بين اليقين والشك.

حدّثه صوتٌ من بين الفراغ:

ـ تبًّا.. عرق الخبث.. يمتلئ به جســدك كلــه.. إن صمدت أمام وجهي فستنجح في امتلاك قرين.

أغمض عينيه براحة.. والعرق يزداد غزارة.

ـ رائحتك عطنة أيها السيد.

ضحــك الصوت بجلجلــة.. فانتفض الرجل من مكانــه.. فاتحًا عينيه مذهولًا، لم ينبس بكلمة..

ينتظر التالي.

ـ 7 ـ

اهتزت أرجـــاء المـــكان.. وكأن الجلجلة تنبئ بظهـــور شيء مهول. أسرعت أضواء الشـــموع الضعيفة بالانطفاء، بالتوالي، وكأنها تلقت أمرًا بذلك.. حتى ساد الظلام والسكون للحظة قصيرة.

سأله الصوت:

ـ أعرفك جيدًا.. وأعرف أسرار النفس الخبيثة التي بداخلك.

ـ أنا عبدكم.

ـ وماذا تريد؟

ـ أنتم تعرفون ما أريد.

ـ نريد أن نسمع منك.

ـ التقرب منكم يا سادتي.

ـ نحن كائنات نستوطن عالم الخفاءْ.. الممتد من كل مكان من حولنا، لسنا مرئيين بعيونكم العادية، لكن هناك من يمكنهم رؤيتنا.

ـ الدرويش أخبرني بكل شيء.

ـ وبماذا جازيناه؟

ـ دخلتم في بطن زوجته الحامل.. فانتفخت حتى انفجر بطنها.

ـ وماذا بعد؟

ـ دخلتم في رأس أطفاله فانفجرت الرؤوس الواحد تلو الآخر.. وألصقتم ظهر الدرويش في سـقف البيت، وغرزتم رمحًا في بطنه ولم نستطع إزالته فاضطررنا إلى قطم الجسد نصفين حتى يزال الدرويش من السقف.

ـ ولماذا؟

سكت الرجل ولم ينبس بكلمة.

ـ حسنًا سأجيبك رغم معرفتك الجواب.. أراد أن يتوب وقال لنا إنه عاد لرشده، فلقي جزاءه.

ساد صمت ثقيل لا يُسمع سوى حفيف ريح مخيفة ثم ما لبث أن عادت الشموع إلى الحياة وكأنها أضيئت بأمر.

حانت منه نظرة إلى الشموع، ثم ضحك الصوت وقال:

ـ المرحلة الأولى انتهت.. سـنظهر لك قريبًا، وإذا ارتعش جسـدك من الخوف فستعيش بقية عمرك مجنونًا وعليك غضبنا ولعنة مِنّا لن تنتهي.. عليك أن تحافظ على قرينك يا سيّد سامي، والتزلّف إلينا في كلّ شيء.

ـ أمركم مطاع.

تخلل الهواء صدره فزادهُ نشوة واسترخاءْ.. رغم أن الحرّ يجثم على رئتيه ببطء وتَصِلُّ رائحته الأنوف الناتجة من التعرق الغزير.

ـ 8 ـ

بين الساعة الحادية عشرة ليلًا والواحدة صباحًا، يظهرون فقط لأشخاص معينين.. عدا ليلة الجمعة، التي هي لحظات ابتهاجهم، يتسكع الجن في عالمنا حتى السبت، يحلّون في عالم مرئي متقمصين شكل الحيوانات أو حشرات، كأن يتقمص أحدهم حمارًا، أو كلبًا، صرصورًا أو فأرًا.

وهناك دولة عربية تتعامل مع الأسحار، ولا يلحقون الأذى ليلًا بحيوان أو حشرة، بسبب إيمانهم المُطلق بالسحر والجن.

سكنهم القاذورات والمراحيض والأماكن الموحشة والأدوية والقبور ومواضع القتلى والمزابل والديورة. وتدخل في الأصنام وتخاطبهم.

وينهون الناس من التغوط في القزع، وهو البياض المتخلل بين الزرع، لأنه مسكن الجن.. وأيضًا الجحر ولهذا يُكره البول فيه.

* * * * * *

تسعة أشياء طلبها إبليس من الله لما نزل إلى الأرض مطرودًا، مذمومًا مدحورًا:

قال: يا رب، أنزلتني وجعلتني رجيمًا، فاجعل لي بيتًا.

قال الله ـ عزّ وجل ـ: الحَمّام.

قال: فاجعل لي مجلسًا.

قال ـ عزّ وجل ـ: الأسواق ومجامع الطرق.

قال: واجعل لي طعامًا.

قال ـ عزّ وجل ـ: ما لم يذكر اسم الله عليه.

قال: فاجعل لي شرابًا.

قال ـ عزّ وجل ـ: كلّ مسكّر.

قال: فاجعل لي مؤذنًا.

قال ـ عزّ وجل ـ: المزامير وآلات اللهو.

قال: فاجعل لي قرآنًا.

قال ـ عزّ وجل ـ: الشِّعر.

قال: فاجعل لي خطًّا.

قال ـ عزّ وجل ـ: الوشم.

قال: فاجعل لي حديثًا

قال ـ عزّ وجل ـ: الكذب.

قال: فاجعل لي مصائد.

قال ـ عزّ وجل ـ: النساءْ.

تسعة أشياءْ طلبها إبليس لتكون له عونًا على أداء مهمته التي طلب الإنظار إليها.. إلى يوم البعث.

ـ 9 ـ

وفي لحظة كان ينتظرها طويلًا.. صبر أكثر من شهر بلا حَمّام ولا زاد يكفيه.. ما يجلبه له زوج ابنته من أكل قد لا يكفيه نصف نهار.. إذْ كان السيد وبعد منتصف الليل يتسـلل إلى مدخل الغار لكي يسـحب صرّة الأكل بهدوء ويعود إلى حلقة الدائرة المتكونة من الشموع.. اشتاق للخارج وشم بعض الهواء النقي.. ضاقت نفسه ولكن جاء لشيءٍ ويجب أن يناله.

ارتـجّ المـكان قليلًا، ثـم أعقبه ارتجاج أقـوى، انطفأت الشـموع بفعل الارتجاجات، بدأ التراب ينهال شـيئًا فشـيئًا من سـقف المغارة ثم توقف الارتجاج.. ليسود السكون من جديد، كان يتبع تعليمات الكتاب الذي بين يديه، بأن يستمر في قراءة الطلاسم مهما حدث، حتى يظهر له مخلوق مخيف كالمارد، وعليه أن يستمر ويستمر بالقراءة وبلا توقف أو خوف، وسيحاول الزائر ـ القرين ـ أن يخيفه بتغيير ملامحه المرعبة، فإن خاف السيد فأمره مقضي بالجنون أو الموت، وإن صمد تآخى مع الجن وفاز فوزًا لا آخر له في الدنيا.

أخيلة الأشباح ملأت المكان، بعد أن عادت شعلتها الخافتة إلى الإضاءة، تذرع المغـارة بحركات انسـيابية في الهواء.. تتراقـص ظلالها مع أنوار الشموع براحة غير عادية.

ثم اجتمعت الظلال في ركن واحد.. وبدأت تتقاذف كسهم ناري أمامه، ثـــم تخبُت حال ارتطامها بالتراب، تبعتها الظِّلال الأخرى.ً ما أن ترتطم بأرض المغارة تختفي ككابوس أسود، وكأنها لم تكن.

«احذر الخوف، سيظهر قرينك قريبًا».

لا تنسَ الوصايا.. ما أن تبدي خوفك أمامه، سيمسخك إلى كائن مجنون.

ومع قراءة حروف الطلاسم، يتصاعد حفيف الأصوات المخيفة وتشتد حدتها. وكأنّها تُعبّر عن غضب عارم يموجُ في صدرها.. غاضبة من ثبات هذا الرجل بلا خوف ولا رهبة.

عليهم أن يخيفوه قبل أن يملك قرينًا.. فأســوأ شيء أن يُســخر جنيٌّ في خدمة هذا الإنسي.

فجأة خيّم الظلام والسكون.

ثم أعقب ذلك ســهم ناري آخر، ارتطم على الأرض.. ليتحول إلى كتلة لهب أنارت المكان، ثم ما لبث أن تكوّن شكل مخيف جلس أمامه، ساكنًا.

يغيّر شكله من قبيح إلى الأقبح.

فتح الرجل عينيه.. اتسعت عيناه جاحظة للحظة ثم تمالك نفسه من غبطة النتيجة.. لقد صمد أمام الكائن وهذه آيات امتلاك القرين بلا ريب.

مخلوق يشــبه الرجل الأرســتقراطي، بملامح مرعبة، العيون عبارة عن محاجر فارغة، قبــح عجيب يطغى على الملامح، ينظــر إلى الرجل نظرة شــيطانية مخيفة، الآن بدأت ملامح المخلوق تنجلي شــيئًا فشيئًا وأصبح واضحًا للرجل بعد أن كان يتلاشى قليلًا ويظهر قليلًا.

استقر على هيئته.

ضحكة مستهترة ثم سكوت مخيف..

ـ لقد نجحت أيها الإنسي.

ـ وإني لعلى عهدي باقي.

ـ تخدمني وأخدمك.

ـ أنا حاضر.

ـ ابنتك.

اهتاجت روحه، تصاعدت أنفاسه قائلًا:

ـ ما لها؟

ـ لا تتردد.. أنت من اخترت عالمنا، لا نحن.. أنت من أعلن استعداده لعمل الرذيلة ولسنا نحن.

ـ ماذا تقصد؟

لقد رأيتني، وليس لك أن ترفض أي فعل نطلبه لأننا لن نرفض أي شيء تريد.. تريد جاهًا وأناسًا يُعظّمونك ويقدسونك.. لكل شيء مقابل.

أومأ برأسه يسأل التوضيح.. قائلًا:

ـ أريد أن أعرف ماذا تقصد؟

ـ ابنتك لا تحمل طفلًا من زوجها.. وبعلها متلهف لطفل يحمل اسمه، ستكون أنت من يزرع الطفل في رحم أمه.

جحظت عيناه، بل أرادتا أن تخرجا من محجريها.

ـ ماذا؟

ـ 10 ـ

ـ متى يخرج من الغار؟

ـ اليوم مساءً.

ـ هل تعتقد سينجح.

ـ أستطيع الجزم بنعم.. فوالدك غني عن التعريف.

ـ عندما أعطاه الساحر المغربي الطلاسم.. كان أبي تواقًا جدًّا لكي يجعل له قرينًا من العالم الآخر، ولكني قلقة عليه من الغرور فأنت تعرفه.

ـ اتركيه، قصيتُه أذيع بشـــكل كبير في القرية، والناس عظّموه أكثر من الإمام علي نفســـه... صوره تباع أكثر من صور الأولياء في كل مكان من البصرة.

ـ يا لهذه القرية الغبية.

ـ اتركيهم فلولاهم لما عشنا... واحذري أن تتفوهي بهذا الكلام أمام والدك.

ـ فعلًا أغبياءْ.

قالت مستنكرة.

قالت معقبة بعينين مشاغبتين وأنفها المحبب، شفتاها كما يشتهي زوجها، ورثت عن أمها الجمال الفتّان، وطول القامة، لون بشرتها السمراء وشعرها البندقي، قروية تمتلك حُسنًا خرافيًّا عيناها واسعتان كبحيرة عسل، أنفها به طول محبب، وشفتاها وحشيتان طالما دمرت بحسنها جيشًا من الرجال.. كلماتها سريعة تنطقها كأنما تتكافأ شهية، نضرة.

ـ سارية، سأذهب إلى الغار وأجلبه اليوم، وأنت حضّري لنا العشاءْ.

ـ توخَّ الحذر وأنت ذاهب إلى الخلاء يا حمدان، تلقاه الآن جائعًا.. سأبعث معك شيئًا بسيطاً ليأكله ويسد رمقه، حتى يصل البيت ونأكل سوية.

- لا تقلقي.

حمدان زوجها، دُب بشري، لكن طويل القامة، على خديه آثار فصد رفيعة، وله شعيرات قليلة أسفل ذقنه فشلت أن تكون لحية، ثرثار جيد، مساعد والد زوجته ـ سيد سامي ـ الذي آوى إلى الغار ليقترن بجنّي ليحقق له مكانة بارزة بين مجتمعه الفقير.. وليبرز كرجل قوي، ذي سلطة لا تُقهر.

ـ 11 ـ

قبل ستة أشهر

جنوب العراق (الهارثة)

1927

الشمس تحرق الوجوه و الرمال وكل شيء، كان أهل القرية إذا مرضوا.. أو أصابتهم مصيبة أو حلّ عليهم غم أو هم، قصدوا بيت السيّد ـ سامي ـ لكـــي يقضي حوائجهم، بأدعية وحِرَز مطوية على شـــكل مثلث مغلفة بالقماش الأخضر.

يجلسون في هدوء في صالة الزوّار، في بيت من الطين كبير وواسع، يتكون من طابقين، 4 غرف كبيرة في الأســفل، وسُــلّم يفضي إلى سطح الدار الشاســع، حيث توجد غرفتان واســعتان من الطــين.. البيت مفروش بأرقى أنواع السجاد الفارسي.

في صمت رهيب وبينما الفرد ينتظر دوره بين الزائرين، ليقصد مقابلة السيد، أقبلت من الخارج امرأة بجســمها البض ودخلت عليه من غير أن تنتظر ولم يعارضها

أحد، زوجة أكبر تاجر في البصرة، ذو نفوذ قوي آنذاك، كان أهل البصرة يهابونه ويحسبون له ألف حســـاب، زوجته جاءت تبحث عن حل ربما ـ العقم ـ عند السيّد، طاوية طول المسافات ليريحها السيد من همّها.

ألوان الجالسين في الخارج مختلفة، بعضهم كلون النحاس متسخ وهؤلاء ينتظرون في الخارج تحرقهم حرارة الشمس يستظلون بسور الدار أملًا أن ينهي السيد مشاكلهم بحرز أو دعاء، وهم من الطبقة الفقيرة، أمّا التجار أو أصحاب الحرف الأغنياء فكانوا يجلسون في الداخل.. تستطيع أن تميز الغني من ملابسه الفخمة.

المفروض الجميع جاؤوا ســعيًا لطلب حاجة أو تســهيل أمر قد تعسّر.. مستعينين بواسطة من السيد لكي يُسهّل تقربهم إلى الله وأوليائه... ولكن؟

في داخل الغرفة الأحداث تخبرنا عكس ذلك.

السيد يجلس على كرسي خشبي على كتفه شال أخضر يعتمر عمامة سوداء.. أصابعهُ مزدحمة بخواتم فضيّة، وعلى جانبيه أريكتان، على اليمين تجلس امرأة، حنطية اللون، ضخمة البنيان، جســدها ليّن كأنّما حشوها سمنة، ذات ردفين خياليين، مؤخرتها رجراجة لعوب، فائقة الجمال.

كانت غرفة الســيّد شــبه مظلمة تُضفي الرهبة والخوف في روح كل من يزوره، دخان البخور كثيف يملأ المكان.

يتربع على الكرسي كملك.. ويمسح صدرها بعينين ماكرتين مرسوم على شفتيه ابتسامة خبث، متحفزًا، متوترًا كلما رمقته بنظرة لاهثة وحادّة، أردفت:

ـ زوجي يا سيدنا لا يجيد الجنس، أصبع قدمي الصغير أطول من ذكره، أريد أطفالًا، وأنت تعلم بأن زواجنا دام عشر سنين ولكنه خصيّ.

كاد أن يهم بسؤالها كيف كانت تكتفي من الجنس طوال عشر سنين ولكنه عدل عن سؤاله، اقترب منها كانت عيناها تلمعان بالرغبة، ثم قال وهو يلهث كالكلب والعرق يلمع في جبينه:

ـ ولو وهبتك الطفل الذي تحلمين به.. ما هي مكافأتي؟

ـ حمّلني وسأهديك مال قارون.. فالمال عندي كالتراب.

قالت بإغراء كبير.

اقترب منها رويدًا رويدًا إلى أن أصبح جسده يلامس جسدها، أمسك بيدها، ثم جعلها تلمس ذكره، حشرت أصابعها بين سرواله وجسده، قالت:

ـ سيّد سامي أريد طفلًا من نسل الأنبياءْ، أولست سيدًا وجدّك رسول الله، إذن لا تتأخر يا سيد.

ـ اطمئني وسيكون سيّدًا مباركًا.

ضمّتهُ إلى صدرها، فاخترقته، جسـدها فاجر الأنوثة، مدّت يدها تبحث عن رمح ذكورته، قبضت عليه فشهقت، ثم قالت بشهوة عالية:

ـ أراهن بأنّ ماءكْ سيحرقني، وإن أفرغتهُ داخلي سيُخلق منه دود ويجعلني أشتاق وأعود إليك يا مولانا.

أسقطت رداءها، اقشعر السيّد من مرأى حلمتي صدرها.

حمراوين كبثرتين.

ـ أدخلهُ.. لن أعتق سلاحك الكبير بعد الآن.

وفي لحظة كانت تنخر الرجـل، والأخير يلهث، والناس تنتظر الفرج في الخارج ليدخلوا وتُستجاب رغباتهم.. جالبين الهدايا من الشاة والذهب والمال.. يطمعون في التقرب للخالق والاسـتجابة لأدعيتهم العالقة بين السماء والأرض.

أمّا في الداخل فكانا متشابكيْن.

ـ 12 ـ

مقام السـيّد المُعمّم في مناطق الجنوب في العراق سواء النائية أو حتى في الأماكن المتحضّرة مهيب، و له سلطة واسعة لا يعلو عليه أي صوت إن أفتى أو صرّح.. فسلطتُه خطٌّ أحمر ممنوع التجاوز والنقاش عليه.

فابتليـت المناطق التي يسـيطرون عليها بشـتى أنواع غسـل الأدمغة واحتوائها بالكامل.. عن طريق حشو الرؤوس بالمعتقدات والبِدَعْ.

ومع مرور الزمن باتت هذهِ التسـمية لعنة طغت على بقيّة المذاهب لأنها تأسست لغرض معين، بانت أبعادها بعد قرون.

فخرجت جماعات نسبوا إلى أنفسهم صفة أحفاد ـ آل البيت ـ.

واعتمروا عمائم سـوداء على رؤوسـهم واسـتغلوا النـاس في أموالهم وأعراضهم، وضحكوا على الملايـين، لأنهم احتووا العقول بطرق ذكية تحت غطاء الدّين، وحذّروا بل ومنعوا الناس من خوض النقاشات بهذه الأمـور، والتي تُعرف ـ بالتقية ـ حيث من يعـصي هذه التعليمات يُعتبر خارجًا عن المِلّة.

والخارج عن ملتهم مصيرُه النار.

كما سيُحرم العبد من رحمة الحسين وعلي لأنهما سيكونان كالرب يوم القيامة يُزيحون ويدخلون العبد الجنّة أو النار.

فارتعشت الأنفس واقشعرت الأبدان، وصدّقوا، واتبعوا الأقاويل والأحاديث المحرّفة وابتدعوا البدع وغالوا كثيرًا في دينهم وشعائرهم.

النقاش ممنوع، اِتّبعْ ولا تُجادل في الأمر.

وكان لظهور المعممين أثر كبير في نشر الفتن والدجل في جنوب العراق، لدرجة أنهم استغلّوا حب الحُسين وزجّوهم في ويلات الحروب تحت مُسمّيات طائفية لا تمت إلى ثورة الحُسين بأي صلة لا من قريب ولا من بعيد.

واستشرى المرض كما يستشري السرطان في البدن ويأكل الصحّة كما تأكل النار الحطب.

ـ 13 ـ

«لا عجب لأنّ الشيطان نفسهُ يُغيّرُ شَكْلهُ إلى شِبهِ مَلاك نورٍ».

ـ 14 ـ

«قبل أسابيع من الاعتكاف في المغارة»

حتى عواصف الخريف أصابها الرعب.

السماء أظلمت نهارًا واكتست سحابًا أحمر كجهنم، أمطرت السماء رملًا. تصرخ الريح حاملة في صخبها ثيابًا وأواني من النحاس والفخار، وفروع الأشجار.

من نافذته راقب ـ سيد سامي ـ شجرة الليمون تميل حتى توشك أن تنكسر في مساءٍ صاخب تعزف الرياحُ فيه أشد معزوفاتها صخبًا.

وما أن ينزل المطر الحانق تصبح تلك القرية الملعونة بالشياطين مستنقعًا يفوح برائحته الفاكهة المتعفنة. وعندما يكفّ المطر تبدو القرية مغسولة رطبة.

كان مولّيًا ظهره لحمدان وسارية، اللذين كانا جالسين حول صينية الشاي، الموضوعة على الأرض، على ضوء السراج.

قال وهو يتأملُ المنظر المخيف متجاهلًا صوت الرياح:

ـ الجن والشياطين تلجأ في مثل هذا الجو المُرعب إلى البيوت، وتبحث عن بيوت لا يُذكر فيها اسم الله.. يتودّدون لأهل السحر كثيرًا.

نظرت ابنته إليه محدّثةً بقلق أباها:

ـ ماذا تقصد؟ ـ فحانت منها نظرة إلى زوجها الذي كان هو الآخر ينصت باهتمام إلى والد زوجته بدهشة ـ.

ـ صوري تُباع في كل مكان، لا يحلفون بالخالق بل يحلفون بي، في التجارة وفي بيوتهم، البصرة ومناطقها المجاورة تبيع صوري أكثر من صورة الإمام «علّي» نفسه.

ضحك باقتضاب ساخر.

ـ أبي عليك أن تحتاط من بعض الأشخاص فهناك من سيدّعي العِلم وسينعت كل ما تفعله بالدجل.

قالت بشيء من التردد.

انزعج أبوها بشدة من كلامها، ثم أردف:

ـ تفاءلي بالخير، لِمَ هذا التشاؤم يا امرأة، من أين سيلد هذا الفارس؟ أنا السيد سامي أحتَطت لكل شيء.

سكت قليلًا لينشر الصمت الرهيب قبل أن يفجّر فكرته:

ـ خلوة واحدة ستغير كل شيء.

خرج حمدان من صمته:

ـ هل ستستعين بالله أم بآل البيت يا عمي؟

ضحك السيد ساخرًا ثم نظر إليه بجزع:

ـ هل الله سـيُكلّمني يا أحمـق؟ أم آل البيت سـوف ينقذونني وهم راقدون في قبورهم؟.. أراكَ تُصـدّق بأن قطع القماش الخضراء التي نوزعها لهـم مقابل المال كحرز ممكن أن تحمينا مـن ثورة محتملة من بعض الطبقات الاجتماعية.

ـ ولكن الأمور ليسـت بهذه السـهولة، الثورة لن تقوم هنا وستفشـل بالتأكيـد، الناس قد أكل الدهر وشرب بعقولهم، هؤلاء العراة والحفاة.. أية كلمات سوف تخترق جدار أدمغتهم المتحجرة.. ما إن أخبرتهم رؤياك بأن الإمام عليًّا زارك في منامك خرّوا لك ساجدين. ـ قال حمدان ـ معقبًا.

ـ سـأخبركم قصة حدثت قبل أعوام، عندما زار سـاحر مغربي وابنته العراق، حلّوا ضيفين على الدرويش الذي لقي حتفه، و كان أعزب وقتذاك، وكان حينها يسـكن في النجف.. أخبره المغـربي بأن هناك كنزًا مدفونًـا في صحراء النجف وطلب مـن الدرويش المسـاعدة.. بعد بحثٍ لم يدم طويـلاً بفضل المخطوط وجدوا المكان، وفي إحدى الليالي وبالقرب من مكان الكنز جلب المغربي ماعزًا أسـود فذبحهُ وأساحَ دمه في دلو وتعرّى، ثم طلب من الدرويش أن يمسح بدم الماعـز جسده بالكامل وألّا يترك مكـانًا إلا ويمسحه، حتى في كل ثقب

من جســـده وبالتحديد فتحـــة الدبر.. وطلب مـــن الدرويش بأن يترك الخجل جانبًا لأن الخجل في هذه الأمور سيكلف حياة المغربي.

كانت ســـارية وزوجها ينصتان باهتمام وبدون أن يقاطعا أو يسألاه عن شيء.. واصل السيد:

ـ تقـــدّم إلى مكان الكنـــز بخطوات ثابتة وعزم، بعـــد أن طلاه الدرويش بالدم، مسح كل منطقة من جسده، كان المغربي أثناء المسح يتمتم بطلاسم معينة لكي يتفاعل مع السحر والدم، قبل أن يتقدّم بشجاعة كبيرة، وقبل أن يظهر تنين مرعب يحوم حول الكنز غاضبًا غير مُرحِّب بالزائر.. يفرد جناحيه الأســـودين العظيمين.. ويكنس السماء نافثًا نيرانه. وما إن رصدَ جســـارة المغربي وهو يتقدّم بكل ثقة إلى الأمام.. حتـــى نفث عليه النار فأحرق الجسد بالكامل حتى غدا فحمًا.

ذهل الاثنـــان وتملكني الرهبـــة حتى النخاع، وضعت المـــرأة يدها على فمها من هول الفاجعة ولم تتمالك نفســـها مـــن الصدمة.. تبكي والدها بشدّة..«ثم سأله حمدان مقاطعًا»:

ـ لماذا تفحّم الرجل؟ أَوَلَمْ يكتسِ جسدُه بالدم؟

ـ لأن الدرويش استحى من لمس دبر الساحر، فقد خجل الغبي، وظنّ المغربي نفســـه بأمان، وأنّ الدم قد غطى كل أجزاء جســـمه، لكي يأمن نار التنين.. ولكن ضاع الرجل، فعادت ابنته إلى المغرب تجر أذيال الخيبة والحزن.

ـ ولكن يا أبي هل في نيّتك أن تُخرج الكنز.

ـ لا، بل أكبر من هذا الشيء، فهـــذا الكنز لا يُغنيني بشيء، ولن أقبل إلا بالشيء الأكبر.. سوف أتحالف مع الجن.

قالها بصوت خشن ارتعد له بدن الاثنين، كادت أن تصرخ ولكن حمدان أسرع بوضـــع يده على فمها حتى كاد أن يكتم على أنفاســـها.. فزاح يده ببطء وحذرها من تكتم الأمر، ثم سأل بفضول:

ـ ماذا تقصد يا عمي؟

ـ حصلت على طلسم من ساحر هندي زار البصرة قبل فترة وسأجربه.

ـ ولكن يا عمي هل هذا الطلسم حقيقي؟

ـ كتاب الطلسم الأسود، زودني منه ما يكفي لكي أحقق ما أريد.

ـ أبي هل تعتقد بأن أمور الجن واقعية، أنا لا أؤمن بها.

ـ عزيزتي هل سمعت بالجن العاشق؟

قالت ضاحكة بسخرية:

ـ أرجوك لا تضحكني أكثر.

لم يهتم بسخريتها، زمّ على شـــفتيه فازداد لمعان عينيه اللتين تقطّرتا شرًّا، بات مخيفًا وهو يهم بالشرح، حتى انعكس نور السراج في عينيه، نجح في إدخال الرعب في قلب الاثنين:

ـ الجن العاشق.. هو نوع من أنواع الجن الذين يكونون تحت حُكم الملك ـ ملك العشيرة ـ ويكون نوعًا مسالمًا لكنه مؤذٍ في بعض الحالات، وحين يُعجب بالبشر، في البداية يتملك قلب الإنسي ثم عقله ثم روحه.

انكمشت الفتاة على نفسها واقتربت من زوجها ليضمها في حضنه، حانت من السيد ابتسامة خبيثة عندما رأى ردة فعليْهما، وقال:

ـ يوهم الفتاة أو الرجل على علاقة حب والحبيبة مجهولة.. وأغلب ضحايا الجن العاشق هم البنات وقليل من الأولاد.

ـ يا رب رحماك.. ـ همست بخوف ـ.

ـ قد يُعجب بصوت الولد أو بشكله، ثم يبدأ بممارسة طقوسه معه، أما البنت فتكون حالة خاصّة بالنسبة له، يظهر لها في المرآة، يراها ولا تراه، فيعجب بجسدها وجمالها، غير أنه يعشق الفتيات ذوات الشعر الطويل ويبدأ يطاردها في الأحلام ثم النوم وأخيرًا يظهر لها.

تقدّم ناحيتهما ببطء، فانكمشت المرأة أكثر من الخوف، تحاول تمالك نفسها، ثم باغتها بطلبه:

ـ صبّي لي الشاي عزيزتي.

وبرعشة يديها صبّت الشاي في القدح وقدّمته له، كان واقفًا يتابعهما بصمت ورضا.. ثم أردف:

ـ على الرغم من اسمه الجذاب ـ العاشق ـ إلا أن الاسم لا يعكس حقيقة شـــكله قطّ.. يشـــبه أقوام الهنود الحمر القدماء، ذو جسد طويل وأسود مخطط البدن بالأبيض ويرتدي الريش الأحمر على رأسه كالتاج.. ذو وجه طويل وفكّ مدبّب، وتبدو عيناه مظلمة ينفث السواد منها.

لم يكن وقع حديث المســـاء المخيف سهلًا على ســـارية.. فبعد أن انتهوا من الكلام، وانفضّ الجميع لينام وا، ولكي يطمئن قلبها كانت تطوف بالحجرات مصطحبة زوجها حمدان الذي تبعها على مضض، مادة يدها بالفانوس فتلقي في أركانهـــا نظرات متفحصة خائفة ثم تغلق الأبـــواب بإحكام، واحدًا بعد آخر، مبتدئةً من الطابق الأرضي مثنية بالطابق الأعلى، ثم تنتهي إلى حجرتها فتغلق الباب وتندس مع زوجها في الفراش، منكمشة في أحضانه.

تكـــررت هذه الحالة كثيرًا، ففـــي وقت الغروب عندمـــا كانت لوحدها أحيانًا، كانت أشد خوفًا، بدأت تستوعب عالم الجن، أنها لا تعيش وحدها في البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن تظل بعيدًا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية، ولعلها آوت إليها قبل أن تولد هي في البيت.

فبدأت تدب إلى أذنيها همســـاتهم، وكم من مرة استيقظت على لفحات من أنفاسهم، حتى زوجها الراقد بجانبها لم يغثها بل غطّ في نوم عميق. كانت تهرع إلى الشباك لتمد بصرها الزائغ إلى الشارع الذي يلفّه الظلام، لا أصوات سوى فحيح الرياح المخيفة، ترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها.

ـ 15 ـ

«بعد الخلوة»

كان ينتظـر محتبيًا خلف صخرة كبيرة في الخـلاء، وقت الغروب، لينزل الليل بهدوئه المعهود. سـيخرج السيد قريبًا من خلوته، كان بدنه يقشعر وكأن أشباح الصحراء تنظر إليه بنهم. والنهار يغوص إلى قلب الأرض، ولن يخرج مولانا حتى يستقر الظلام في كل ركن، ويتسلق السماء.

رأى رغم الظلام الشـديد شبحًا يخرج من فم الغار، بردائه الأبيض، لولا قربه من الغار وضوء القمر لباتت رؤية السيد أمرًا صعبًا.

بدا واضحًا في العتمة كلما نزل من السـفح واقترب من حمدان، أمسـك بقجـة الطعام وهرع ليُقبّـل يده ويهنئه على سـلامته.. تقزز من رائحته، كانت مقززة تقتل الكلب في مكانـه. كانت رائحته قبيحة عطنة، كفاكهة عفنة، العرق السام يلتصق بجلده.

ـ جلبتُ بعض الطعام لكي تسند به طولك.

ـ غبي وهل هذا المكان يفتح الشهية للأكل.

لم ينبس حمدان بكلمة وارتأى لزوم الصمت، أسلم له من تلقّي صفعات الكلام من السيد البذيء.

كان الهواء رطبًا مُشبّعًا بالملح، ينضح ببرودة خفيفة، والسماء مثقلة بسحب الصيف، توشك أن تسقط على الخلاء.

ـ قلقنا عليك جدًّا مولانا، فحمدًا لله على السلامة.

ـ حذرتك ألّا تذكر اسم ربك أمامي مرة أخرى.

أطرق حمدان خاشعًا، وقبض الرعب روحه، لم ينبس بشيء. رائحة السيد كالخراء، كيف ستكون الحياة بعد هذا اليوم معه، هل سيحافظ على عادته أم أن التحالف مع الجن سيغير الكثير من مجريات الحياة.

ـ ستقول حمدًا على سلامتك مولاي السيد، فالجن من سيتولى أمورنا من اليوم وصاعدًا.. أنا من أتباعهم منذ اليوم.

ـ هل تقصد أنك رأيتهم؟

ـ اسمع ـ مال برأسه إلى حمدان حتى كاد أن يلتصق بوجهه، يحذره بلهجة غريبة.. مخيفة للغاية.. وقد تغيّر صوته فجأة إلى بحّة مرعبة، وكأنه صوت شبح يتكلم عن لسان السيد ـ لن تسأل أكثر مما سألت اليوم، إن كنت تريد

فعلًا أن ترافقني وتصل بسلام إلى البيت، قبل أن أفجّرك بسُخطي عليك وأفصل رأسك عن جسدك.

أفزعَتْه جدًّا نبرة الصوت المبحوحة، لم يكن قط صوت السـيد.. شخص آخر تلبسه ويتكلم بالنيابة عنه، التزم الصمت رغم الخوف الذي يكاد أن يمزقه والرجفة بدأت تلازم بدنه. ضاع صوته من حنجرته خوفًا وهلعًا، ولا يدري كيف ما زالت سـاقاه تحملانه، ربما قوى خفية من الجن تحمل ساقيه ليواصل المشي مع عمّه.. من يدري؟

-ماذا لديك في الصرة؟

تمتم بخوف:

ـ سارية بعثت بعض الأكل.

رفع الصرة بيده التي ما زالت ترتجف حتى توازى مع مسـتوى عين السيد، رمى السـيد نظرة سريعة إلى الصرة، ثم لاحت منه نظرة استنكار اقشعر لها حمدان.. الذي انتفض بدوره من الطريقة الغريبة التي يتصرف بها السـيد، أشاح بيده قائلًا بصوت أجش:

ـ سنأكل في البيت.

ـ سارية جهزت الحَمّام أيضًا.. لا يفوتها شيء أبدًا.

لم يتمالك السيد نفسه.. فزمجرَ بصوتٍ قطع هدوء الخلاء:

ـ أي حمّام أيها الغبي، لا حمّام لي بعد اليوم، إلا كُل أربعين يومًا، عليك أن تعرف ذلك.

لمس حمدان لأول مرة في السيد تغييرًا مفاجئًا.. فلم يجد فيه اللين كالسابق، ولم يعهد هذه التصرفات من قبل.. الأريحية بالكلام والتودد إلى عمه كانا يضيفان إلى نفسه الطمأنينة، ولكن ما يراه الآن خالٍ من كل ود.

كانت كلمات السيد تنخره بشدّة.. وطغى بعض الخوف عليه، خصوصًا بعد أن تكلم بصوت غير صوته.. وكأن شـــخصًا آخر يتكلم.. يخاف في قرارة نفسه أن يفكر بشيء، لكي لا يُفضح تفكيره للجن.. ويوشيَ أفكاره لعمه ويفتضح.. الأحســـن أن يمتنع عن التفكير لكي لا يقع في المتاعب مع عمه وقرينه.

ـ 16 ـ

رغم الظلام الدامس، إلا أنّ المارّة كانوا كخنافس نشـطة، يسـيرون حفاة، كانت تراقبهم من شـباك غرفتها، متحلية بالأسـاور والحجل، حلوة كخبر مفـرح، تمد بصرها إلى الأفق الأسـود، تُنزل قدميها عـن الأريكة المحاذية للشباك، تنهض.. تذرع الحجرة الواسعة بقلق، تتأمل السقف الخشبي، تتمتم بأشـياء، وربما الدعاء بعودة والدها وزوجها بخير وسـلامة، ثم تتجه بقلق إلى الشـباك ترقب الطريق، لا ترى من تنتظر قدومهما، تمد بصرها إلى الأفق الأسود مرة أخرى، لا تكاد تميّز شيئًا، تأخرا كثيرًا.

رائحة الملح تصلها في مكانها محملة بالرؤى. أبوها اليوم سيكون سيد القرية لو نجح في خلوته، لن يزعجهم أي شخص ممن سيَدّعي الحرب ضد الجهل أو حتى وإن كانوا رجال الأمن. تحاول مد بصرها شمالًا لعلها تراهما، لكنها ما زالت لا ترى شيئًا.

ـ 17 ـ

ما زالا يمشيان حتى وصلا أطراف القرية.. دخلا في أول زقاق بصمت، لم يشـأ السيد أن يراه أحد وهو يسـير على الطريق العام.. لا قِبل له ولا شـهية باسـتقبال أحد، ففضّل الولوج في الأزقة المظلمة.. للوصول إلى البيت بسلام وهدوء.

التعب بادٍ عـلى الاثنين، جو خانق، لا هواء يتحرك، يقبض النفوس، ثم سأل السيد حمدان بهدوء:

ـ الصمت يعمّ القرية، أتراهم ناموا من شدة الحر؟

ـ يتمنون رجوعك من إيران، كما أوصيتني أن أقول، ينتظرون رجوعك لتشفي مرضاهم وتنفحهم بأحجبة الرزق والبركة.

ـ أغبياء. « همس السيد بحنق».

ثم سأل مرة أخرى باستنكار: وماذا أيضًا؟

ـ وتقذف في قلوب النساء الطمأنينة.

أجاب حمدان بخُبث رغم الخوف الذي تسلّق مفاصله.

سارا طويلًا حتى اقتربا من البيت ثم بادر حمدان قائلًا:

ـ ها قد وصلنا أخيرًا أكاد أرى شبح سارية المُنير في الشبّاك تنتظرنا.

أشار إلى ناحية الشبّاك هامسًا يكادُ يلتصق بوجه السيد من الغبطة.

ـ سـيدنا يجب أن ترتاح، فأمامك واجبات كثيرة.. ما أن يسمعوا بك قد وصلت حتى تكتظ الدار بالزيـارات.. لتهديهم من فيض بركة زيارتك لإيران لضريح الإمام الرضا.

حدّجهُ السيد بنظرة احتجاج أن اخرسْ.. ولم يُعلّق على تفاهات حمدان، كان يهذر كل الطريق بلا توقف.. وقد حان الوقت لكي يسكت.

لمحت سـارية والدها من بعيد حتى نزلت مسرعة لاستقباله مشتاقة، فتحت باب الدار، تبدو مشرقة متهللة تتمايل وهي تستقبل والدها بكلمات الاشتياق أضافت لوالدها الارتياح العالي لرؤيتها بهذه الزينة. ارتمت في حضنه سعيدة:

ـ والدي اشتقت إليك.

تجاهلت رائحته الكريهة.. وحاولت أن تكتم أنفاسها دون أن تُلمّحَ شيئًا من انقباضها من رائحة أبيها، احترامًا له.

قال بعينين تلمعان من نصرٍ لطالما كان يحلم به:

ـ وهل لي في الدنيا غيرك، ابنتـي، انتهى زمن الخوف. والدك عادَ قويًّا.. أقوى من قبل.

ثم مجددًا فتح ذراعيه واسعتين وضمّها فضمته.. وقبّلها فقبّلته.. وكأن في رجوعه كان يحملُ العيد.

ـ 18 ـ

يوم كغيره من الأيام، لا الشـــمس تنذر بما ســـيقع، ولا الناس يعرفون ما تُخبئ الأقدار لهم، إلا أنهم يتكتلون الواحد تلو الآخر، بعضهم حضر لتقرأ ســـارية لهم طالعهم، وأغلبهم حضروا لرؤية الســـيد وأخذ البركات منه، يطلبون بأن ينفحهم الســـيد بحرزٍ أمين يحفظهم من شرور الأيام والحسد والعين، والرزق والحمل.. وما إلى ذلك من الأمور التي تشغل بالهم.

رياح السموم تهب حارّة كلهبٍ مسموم، فالوقت هو الصيف.

كان كل من يدخل إلى صالة السيد التي يجلس بها لاستقبال زبائنه يشكو غيابه.. ويُظهر في كلامه مدى اشتياقه لرؤية مولاه السيد.

افتقدهُ أغلب الناس.

كان السيد يوضّح لكل زائر مهم يدخل عليه الآتي:

ـ الإمـــام الرضا.. عند زيارتي له، طافت روحـــه معي حول المرقد وكأني أراه «هنا فتح الرجل فاه معلنًا اهتمامه لاستماع قصة السيد» كان يبتسم لي، يعلن عن رضاه عليَّ وعلى كل من يتبرع بالخُمس ـ الزكاة ـ في سبيل الخير،

وأنـــا نائم ذات ليلة زارني في منامي، كانت رؤيا تبشر بالخير، بشرني أن ما أفعلـــه في خدمتكم هو عين الصواب في زمن قـــلّ فيه الصدق، وأهداني عبـــاءة خضراء وقال لي: يا ســـليل أحفاد النبي بلّغ شـــيعتي بأنهم بخير والجنة مشتاقة لهم.. مشتاقة لكل من لطم من أجل «الحُسين» وأحيا ذكراه وطبّر لحمه في سبيل أن يتألم لآلام آل البيت ومصابِهم المروّع.

هنا قام الرجل خاشـــعًا وصلى عـــلى النبي وآل بيته ثم جثـــا على ركبتيه وزحف إلى أن وصل إلى قدم الســـيد وانهال بالتقبيل على الساقين.. رماه الســـيد بنظرة وابتســـامة ماكرة.. ربت على ظهر الجاثم على ساقيه.. ثم مسح على شعره برفق قائلًا:

ـ لقد وفيّت وكفيت ونلت رضاي ورضا آل البيت.

أخرج الرجل كيسًا من المال ودسه بخشوع وهدوء في يد السيد ثم زحف إلى الوراء حتى استقام حانيًا ظهره وغاضًّا بصره ليخرج متمتمًا:

ـ بارك الله بمولانا السيّد، بارك الله بمولانا السيّد.

حتى توارى خلف الباب.

لمعت عينا الســـيد وزفر بسعادة ورضا وهو يفرك بكيس النقود.. مستمتعًا بنغماتها الساحرة التي تصدرها القطع المعدنية.

كان وجهه يفور بالنفاق، ينحـــت كذبًا بتقوى مصطنعة على ملامحه أمام كل داخـــل إليه، كل من يدخل إليه كان يحمـــل عطايا يغدق بها مولاهم العتيد.. أو يجلبون له بقرة أو عددًا من الأغنام حتى أضحى السيد أغنى الأغنياء في البصرة وفي وقت قصير.

وهكذا يجد الأهالي أنفســـهم يطيعون الســـيد طاعة عمياء، رجل يعتمر عمامة سوداء.. ذاع صيته فجأة من دون سابق إنذار، لا يحق لهم الخوض في نقـــاش حول الدّين، ممنـــوع ثم ممنوع، النقاش ســـيُخرجك من رحمة «الحُسين» يوم القيامة لأنه هو من سيُدخل شيعته الجنة حتى ولو كانوا في النار، هذه محاضرات تفّشت وباتت تُدرّس في مجالسهم إلى وقت طويل.

ـ 19 ـ

تفشّت في البصرة ظاهرة ـ سيّد سامي ـ حتى بات مقدّسًا، ومن يستهزئ بالسيد سامي يُحذّروه من مغبّة وخطورة فعلته وأنه سوف يُصاب بعجز في أجزاء جسده، وسيحيق كل من يتجرأ بسوء على السيد سامي لعنة إلهية.

وكانت صور السيد تُباع من قبل الباعة أكثر من صور «الإمام علي» نفسه.. وسعر الصورة وصل إلى مرتبة أعلى من مراتب بقية صور الأئمة المتداولة في أسواقهم.

صور كبيرة أو صغيرة تُنسخ منها المئات وتُباع، يعتقد حاملها أنها بركة كبيرة وستبعده الصورة عن كل سوء.

وجه مستطيل يعتمر عمامة سوداء بشارب ولحية تغمر نصف وجهه تتخللها شعيرات بيضاء.

من يبتعها يقبلها باحترام بالغ ويضعها على رأسه إجلالاً لصاحب الكرامات ثم يضعها في جيبه، أحدهم قال فرحًا:

ـ أقسم بالسيد سامي، ابني كان مريضًا جدًّا.. ما إن مسحت صورة السيّد على وجهه وجسده حتى اختفت الحُمّى بعد سويعات قليلة وشُفي تمامًا.

فأجابه الآخر:

ـ بركات السيّد لا غُبار عليه، جده سلام الله عليه الرسول الأعظم، لا حجاب بين السيد وبين ربّه، لقد سمعت بأن الإمام الحسين أهدى سيد سامي بركات لا تنتهي أبدًا عندما زاره في المنام.

ثم أكمل الثالث:

ـ يجب أن نحافظ عليه من الحاقدين، ولاسيما عيون الحكومة الكافرة، فالحكومة تخاف من رجال الدّين.

وابتعد أحدهم فرحًا وهو يشق بسعادة التيار الزاخر من الناس الذين يسدون الطريق بزحمتهم.

ـ 20 ـ

كان المساءُ يسيل على جســدها. عارية كبهجة متوحشة، بيضاء كحليب البلابل. شــعرها البندقي مبلل يلصق بعنقها ويتشبث بوجنتيها. عنقها طويل كغزال. ونهداها ثمرتا تبلدي.

فردت شــعرها على كتفيها والتقطت ثوبها ثم انزلق بأمان على جســدها ليُغطي جسدها البض.. تفوح منها رائحة الجلاد وماء الصندل.

كان والدهــا من وراء باب الحمام يقطر بالدنــس يراقب من ثقب الباب الخشبي الصغير. يلهث ولسانه يندلق من فمه مداعبًا بشهوة عظيمة ذكرهُ على رؤيته مفاتن سارية وصوت خفي يتلو على أذنيه:

ـ هذه الجميلة البضة التي حرمت نفســك منها بقانون إلهي جائر.. هذه ستكون لك.. لك وحدك.. قانوننا لا حرام فيه فكل شيء فيه مُباح.

لوّثت قطرات المني رداءه، تراخت قبضته شــيئًا فشــيئًا، وعندما همّت سارية بالخروج.. ارتبك وفرّ قبــل خروجها، تراجع فاقد الصــواب، تعثّر، ليصدر صوتًا خافتًا، انتبهت سارية فظنت أنه الجني العاشق.

لملمت نفسها وأخذت حاجاتها لتخرج فارّة مُسرعة من الحمام حاملة معها الفانوس، فتحت الباب وخرجت تركض لتخبر والدها بما راودها من مخاوف. كان جالسًا بهدوء يتصنع القراءة في كتاب كبير متهرئ الصفحات يقلبه بهدوء..

جاءه صوتها تستغيث بخوف جميل:

ـ أبي.

رفع بصره بهدوء ووقار وهو متربع كالملوك.. رآها بيضاء يُغلّفها النور الفضي:

ـ نعم سارية.

قالت لاهثة:

ـ كنتُ في الحمام وأحسست بأن أحدًا يُراقبني خِلسة وأنا عارية.

تبعثر وجوده.. واضطرب ثم قال بارتباك:

ـ من؟

ـ لا أعرف ربّما الجن العاشق.

هنا أطلق ضحكة عالية وبأريحية كبيرة قائلًا:

ـ وكيف لا يعشقك «قام من مجلسه واقترب منها بشهوة العاشق ووقف خلفها يكاد أن يلتحم بظهرها» لكِ عينان مشاغبتان، وأنت بالنسبة

للرجال والجن شـــهية، نضِرة، يكســـوك جلالٌ وفتنـــة، ضحكتك لمعة مسروقة من القمر.

ابتسمت فبان حسنها كالقمر بشعرها الذي يسيل كالنهار المشرق، قالت وهي ساهمة في كلام أبيها:

ـ ليت حمدان يخبرني بذلك.. ليته مثلك.. ولكن عيبه لا يعرف الكلام الجميل.

ـ ابن القحبة، لا يحس بقيمة ما يملك من حسناء ـ داعب بأصابعه شعرها وقرّب أنفه من خصلاتها وشمّها بشذوذ ـ أنت الماس بل أغلى من ذلك.

استدارت برفق نحو أبيها الذي اعتدل بسرعة لكي لا يثير شكّها، قبّلته ببراءة الأطفال على جبينه ثم تركته وصعدت عبر السلم إلى غرفتها، التفت بانتعاش وحسرة إلى مؤخرتها وهي تصعد السلالم.. والأرداف تتمايل صعودًا ونزولًا.. يا لها من بضّة..

أفاق من همس الصوت الخفيّ الذي أتاهُ مرة أخرى.. فانتفض:

ـ انظر، وأشـــبع النظر من مؤخرتها، تخيّل كيف سينفذ قضيبك داخلها، إنهـــا لك، إنها لك، انتظر منّا ســـاعة البدء، ولكن الطفل ســـيكون لنا.. نأخذه، وليس لك أن ترفض.

ـ وزوجها؟

ـ دبّرنا أمر التخلص منه، تحتاج إلى خادم مطيع، لا منافس على مُلكك، لا يصلح زوج ابنتك أن يرافقك بعد الآن.

هنا جحظت عيناه، فواصل الصوت الهامس بتأنٍّ:

ـ سنجعلهُ يتشبث بثدي أمل لا يدر حليبًا.

ـ لم أفهم.

ـ يريد أن يتآخى مثلك مع الشيطان ولكن سنضلله وستكون نهايته على يديك.

انتفض برعب وسأل:

ـ أقتله؟

ـ لا، ولكن الخلاص منه سيكون على مراحل وعلى يد الشيطان المولود الذي سينجبه من البيضة.

ـ ينجب جنيًّا؟

ـ سنخبرك بكل شيء بعد حين.. لا تتعجل الأحداث.. جعلناك ملكًا في قريتك، أعطيناك مُلكًا يحلم به الكثيرون، وستفوق مُلك سليمان.. أنت اليوم بالنسبة لهم كالنبي.

تلاشى الصوت، وانسحب تاركًا صدى النبي يتردد في أذنيه مُصدرًا فحيح هواء مخيفًا، تركه الصوت.. في ذهول لذيذ.

–21–

الحياة يصنعها المعتوهون، اللصـــوص، الوصوليون، الزناة والقوادون، تلك العجينة من القذرين، وفاسدي الشرف يقيمون أضلاع المثلث ليليًّا، حفلة للأغنياء في قصر «رفعت بيك» بمناسبة عيد ميلاد زوجه ـ حميدة ـ الجميلة التي كانت توّاقة لطفل لا يهُم من يكون أباه. رغبتها فقط في طفل يرث والده.. زوجها الأكبر منها بثلاثين عامًا.

ـ رفعـــت بيك ـ يعاني من أزمة قلبية حادة، الدكتور أكد بأنّ الأزمة الثانية لن تبقيه على قيد الحياة. عليه الابتعاد عن المشـــاكل لكي لا يُصاب بأزمة من شـــأنها أن يفقد حياته.. لم تكن تهتم بحياته بقدر اهتمامها للمال بعد أن ترثه، كانت تُحذّره ظاهريًّا من الإفراط بالشرب، حين أكبت على استظهار نوع من الحب الظاهري أمام المجتمع المحيط بهم.

كان جو الحفلة تعفرًا بالفساد، وهم يحتفلون بعيد زواجهما، «رفعت بيك» سَكرَ تمامًا، يتســـامر مع ضيوفه في حديقة الفيلا الواسعة، غادرت حميدة الحفلة بعد أن ســـبقها شاب بإشـــارة منه إلى داخل الفيلا، وتسلل بخفة عبر الســـلالم إلى الطابق العلوي بعد أن تأكد من خلو الصالة من الخدم،

لحقته هي بعد أن تأكدت أن الجميع قد غاصوا في غمرة السُّكر، رفعت بيك ثمل يعل الكأس ويشربه يترنح بين المدعوين.. حتى أخذ مجلسه بين نساء ورجال سكارى كانوا يضحكون مرحين، فرحين بجوهم الخلاب الذي تغشّى قلوبهم بشتى عواطف الحماس والحب.

دخلت وراءه إلى إحدى الغرف المظلمة، كان مختبئًا وراء الباب.. وما إن أوصدته حتى باغتها فجأة.. بسحبها من ذراعها مُطمئنًا إيّاها بأن لا أحد سيصل إليهما، لثم جبينها.. ذلك الشاب الأسمر الأنيق، عاتبته بإغراء شرس ـ بعد أن ضمّها إلى حضنه.. تعاتبهُ ـ على المرأة التي اصطفاها عليها زوجته «صفية» ـ وكأن النساء أصبحن لديه كثمار الأرض كل واحدة منهن لها تربتها التي تتشبث بها، ولها مذاقها المثير لشهوة القضم، تغيب عنا في فصول، تقليب يحدث في الأرض والروح والرغبة.

يلثم رقبتها ويتجاهل عتابها، يعصر نهديها، يكاد يرفع ثوبها تمنعه، تحت ستر ظلام الغرفة انزويا في زاوية الغرفة.

ـ لا أستطيع التخلص منك، وكأنك تأتين في المواسم كالفاكهة، أنت أول طعم لذيذ تسلل إلى جوفي.

ـ وصفية؟

سألته مُحتجّة.

هنا عصرها من ثديها بشهوة ونار حتى لامس صدرها صدره فاشتعلت بينهما نار شـــهوانية بانت حرارتها عندما تحـــوّل الكلام إلى همس حارق أفحمت الاثنين:

ـ ألا تنسين قليلًا.

كانت تتكلم بكل رضا وارتياح وهو يشـــدها هائمًا بأعصاب انهارت مـــن لوعة أنوثتها التي لا ترحم، فرّت منها آهة، ظل يحتضنها وشـــم رقبتها ولثم شـــفتيها حتى أفلت الزمام من الاثنين وغرقا في نشـــوة طويلة، تعض فرائصها من قوة دفع الشاب الأسمر، غرس أصابعه بين إبطيها وراح يشدّها أكثر وهي مولية وجهها للحائط. التفتت إليه بهدوء وتوقف هو ليثبت عينيه في عينيها.

بقبلة طويلة على شفتيه قالت بخدر عميق:

ـ أحبك رغم أني أكبرك بسنوات.

أجابها:

ـ وهل تطيب علاقتنا بدون فارق العمر.

ـ جودت، أتعلم كم أشـــتاق إليك حتى وهـــو بجانبي على السرير.. مُرتميًا كالخنزير الميت.. صدّقني لا أكاد أطيق هذا الخنزير، متى ينتهي وننتهي منه.

أدنت وجهها منه فمدّ شــفتيه ولثم خدها، تناولــت ذقنه بأنامل يمناها وقبلتهُ تكــرارًا، وكأنّهما جوعى التقبيل، ثم قال محذرًا وكأنه فطن إلى أمر أهم من التقبيل:

ـ حسبنا هذا التأخير فقد ينتبه أحد لاختفائنا.

مسحت على شعره مبتسمة تطمئنه:

ـ لن تجد أحدًا صاحيًا الآن.. الجميع يترنّح وقد تجد زوجاتهم في أحضان غير أزواجهن.

انســابا بخفة من الممــر المظلم ثم جعل حميدة تنــزل أولًا من الدرج إلى السلاملك ومن ثم إلى حديقة القصر وبعدها تبعها العشيق بخفة الغزال واندس بين الحضور.

–22–

سرعان ما فترت روح السيد سامي ولاحَ في عينيه الضيق ولزم الصمت مليًّا، كان جالسًـــا في الصالة الكبيرة متربعًا على الأريكة الخشبية، وآنسَ حمدان من صمته تسليمًا فقال بظفر:

ـ ولم العصبية يا ســيدنا، وماذا يحدث لو أتّبع أسلوب السحر ويكون لي جني قرين، كما لك.

ـ اســمع حمدان، لكي تؤاخــي جنيًّا، فهــذا ليس بالأمر الهــيّن، أمامك امتحانات صعبــة لتثبت جدارتك على الشــجاعة الكافيــة لتتمكن من الصمود أمام أشكالهم المريعة وإلا فستُجن حتمًا وفي هذا الموضوع لا يوجد هزل، وستُصبّ عليك اللعنة إلى أن يقودوك إلى القبر، فلا رحمة لديهم.

ـ وإذا صمدت أمامهم؟

ـ لا أعتقد «مسحهُ الســيد بنظرة احتقار واستهانة، فضاق ذرعًا منه وودّ لو يقتله في الحال».

تمعن الســيد في وجه حمدان مجدّدًا وكانت فكرة جهنمية خطرت على ذهنه.. أنامله غاصت في لحيته وبدت عليــه علامات الغضب، لا بد أن قرينه كان على حق عندما حذّرهُ من حمدان.. وهذه بداية حماقة قد ظهرت من حمدان.

قال السيد بامتعاض ومكر:

ـ السـيّد كنديـاس، أقوى ملوك الجان، يساندهُ ناصور وهو جني قوي، أي خطأ في تعويذته الخاصّة يصدر من قبلنا ولو بحرف سيسبب ضررًا جسيمًا، وأحيانًا يصل إلى الموت، أناس أخطؤوا فقتلهم الجن، اسمع يا حمدان...

مال بجذعه نحو حمدان، ففعل حمدان نفـس الشيء، اشرأب عنقه وبدأ يصغي بدقة وحذر إلى السيّد:

ـ عالمنا غير سهل.. لي صديق مغربي كان ساحرًا كبيرًا.. بدأ مُنجّمًا قبل أن يخطر له أن يدخل في عالم الجن، جلس يومًا وهو عاكفٌ في الخلاء يستعد لإحضار جني، وفي أثناء خلطه البخـور، أخطأ في التعويذة حتى أصابهُ الموت خنقًا، لأن على الساحر في بعض الأحيان أن يكرر قراءة التعاويذ 200 مرة وإن أخطأ فلن يأتيه شيء، حتى ولو رقص الساحر على السُّلّم وعلى أطراف أصابعه.. والخلوة أصعب أحيانًا.. وبعد أن تجتاز اختبارهم تجدهُ أمامك على شـكل طفل بريء مسـالم جدًّا يبتسم ومؤدب، ولكن لّما تستهين به محتمل جدًّا أن تفقد النطق ويصيبك الشلل أو أي لعنة من شأنها أن تفتك بك.

ـ إذن، عمّاه دعني أجرب، فلا ضير من ذلك.

حدجهُ السـيّد بنظرة حادّة، امتلأ حنقًا وترهيبًا.. اهتزت لها فرائص حمدان هلعًا من نظرة عمّه الغاضبة له، والذي رماه بنظرة مسـح بها أجزاء جسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض، كقربة هائلة، لم ينبس بشيء، وفكر في صمت،

اتســعت أفكار حمدان وبدأ يُفكر بطريقة لم ترتح لها أســارير الســيّد، بل اعتبرها الأخير بأنّ حمدان قد أعلن الحرب، ولا نهاية لها إلا بالموت.

وللســيّد طموح كبير وواســع ما زال يرنو لتحقيقه، يتوسع ولن يقف عنــد حد معين، لم يفكر قط أن ما يقوم به ربما يفتح عليه نيرانًا ربّما تكون صديقة أو نيران أعداء يتربصون له بأن يهفو أقل زلّة ليسلخوه بلا رحمة.

لكنه أيضًا يملك قرينًا من الجن، اســتحوذ عن طريق السحر على قلوب أهل قريته، بل حتى اســتحوذ على قلوب من كبار رجال العشائر الذين يتوافدون إليه زحفًا على الرِّكاب.. مــا أن يصلوا باب داره حتى يبركوا ويبدأ الزحف أو الحبو إلى داخل داره، بعد أن يُفتح لهم الباب المقدس.

لــن يضحي بكل هذا من أجل تحقيق حلم حمدان المريض، ســيفكر بطريقة لكبح جِمــاح طموحه المجنون.. هذا الثور الجاثم على صدره منذ ســنوات طويلــة يجب أن يُردع.. ولكن اللوم ليس على حمــدان.. بل الحق عليه لأنه زوّجه ابنته الوحيدة، ظانًّا بأن حمدان ســيكون ساعدهُ الأيمن مدى الحياة، لا أن يُفكر في إزاحة السيد، لكي يحقق طموحه القذر على حساب الغير.

غرق في تفكيره المعهود حتى أيقظه صوت الثور الجالس أمامه:

ـ سيّد هل سمعت ما قلته؟

التفت إليه الســيد بصمــت بالغ فقط اكتفى أن يدير رأســه نحو حمدان محتفظًا بثبات جســده وأعصابه، كالصنم جالس يُطالع حمدان.. الآن..

الهمس بدأ يطنّ في أذنيه، القرين يحضر في أي وقت يشاء ولا يمنعهُ أحد، أمره الهمس أن يتلو لحمدان ما تلتقطه أذناه من تعاليم سيمليها القرين عليه الآن بشأنه..

استعد السيد محافظًا على هدوئه، فمال بجذعه نحو حمدان، رفع حاجبه باهتمام وهمّ بقول ما يلزم قوله على ثور ابنته مقلصًا عضلات وجهه، وقد بان أكثر جدّية الآن:

ـ هل سمعت بقرين البيضة؟

أشار بيده لحمدان ـ أن اسكت ـ عندما همّ حمدان أن يُجيبه، ولكن السيد لم يسمح له كالعادة ثم واصل:

ـ أن يُولَد لك قرين من المني.

التزم حمدان الصمت، ليس باختياره بل جبرًا.

ـ منيّ الرجل يُحقن في بيضة، بدون كسر لئلا تفسد العملية.

*****

حقن البيضة بمني الرجل سحر مغربي قديم، مذكور في كتاب السحر الأسود الذي يُصيب بالجنون كل من يحاول أن يقرأه بدون دراية ووعي.

يحتاج ممارس هذا النوع من السحر أن يتمتع بجرأة وشجاعة عاليتين، ليتحدى الطبيعة، بحقنه للبيضة من دون أن يسبب كسرها لكي لا يفسد السحر،

ثم دفــن البيضة لأيام محددة كما يشــير في الكتاب، وبــدون تأخير يأتي الفاعــل في اليوم الأخير ويجد قرينًا صغيرًا لا يتعدى طوله طولَ ســاعد اليد، بانتظاره.

إن تأخر في حضوره ينقلب عليه السحر ويكون الجني القزم عدوًّا أبديًّا له.

وإن فكّر الفاعل يومًا في التخلص من الجنّي الصغير.. عليه أن يملص رأس قرينه بدون أن ينظر إليه.. لأن الجني سيتمثل له بأشكال مروعة.. ليتمكن من الخلاص مــن بين قبضة الفاعل والفرار منه، ويذكر الكتاب أن الجني ما يلبث أن يعود بعد فترة قصيرة لينتقم من صاحبه ولن يحول بينه وبين قتل الفاعل ذلك إلا الموت.

* * * * *

الرجل مجرد أن يفكر بأن ينتقل عن وضعه العادي إلى ساحر، فيعتبر إنسانًا مجردًا من كل القيم الإنســانية، ولا يؤمَن له جانــب حيثُ يُعتبر حليف إبليس في الأرض، وهو دسيســة على وبين خلق الله، فالسحرة لا يؤتمنون على توصيل عقيدة أو إيقاظ ضمير نائم، لأنهم وبصنع أيديهم جُرّدوا من أي عمل رحماني، وقاموا بتبديل النورانية بالظلمانية، والرحمانية بالشيطان.

وللساحر تعاون مباشر مع شياطين الجن والطواغيت منهم، وجميعهم داخل دائرة شيطانية واحدة، ورأس هذه الدوائر ـ إبليس ـ.

وعقائد العمل عديدة لدى الساحر، منها التبرؤ من عبادة أي إله إلا إبليس، ليتبرأ الساحر من الله وملائكته وكتبه ورُسله، ويُعلن ولاءه لإبليس اللعين.

وكما أن لإبليس عرشًا يحملهُ كبار الشياطين وهم ثمانية، وله مئة اسم تدخل في العزائم التي يقرؤها الساحر، وله أسرار توزيع الخدمة وهي الطلاسم، وعددها مئة، وهذه الطلاسم هي همزة الوصل لكل من يدخل هذه الدوائر الشيطانية.

يذبحون القرابين، ولا يُسمّى عليها، ويكون على نيّة شيطانية ويدهنون أجسامهم بدم هذه القرابين، والنجاسة.. وهي التلذذ بمعصية الله عندهم عبادة. كما تدنيس القرآن عندهم عبادة.

استطاع سيد سامي أن يحرز من خلال عمله التقدم في مجال حياته، وكان كما أراد ساحر درجة أولى.. وأن يطمح في قرارة نفسه إلى الخلود، مستغلًا الدين غطاءً له، أوهمَ العديد بأن آل البيت هم من يلبون له طلبه حبًّا به لتقواه. استحوذ على عقول كثيرة، ولا يحلف الفرد إلا باسمه، ولم تكن المدارس في تلك المناطق النائية تفي غرضها بالقضاء على الجهل المسيطر بين أهل القرية.. بسبب برمجة عقولهم منذ الصغر على معارف وأقاويل هشّة للغاية، وأي فكر جديد يُعتبر لديهم كُفرًا وفسقًا ويعتبر من أعداء آل البيت.

ولم يكتفِ ممن يدّعون التديّن بهذا القدر من التقدم في تحريف العقول، بل ابتدعوا خرافة الأرواح التي تطوف حول المراقد المقدسة وتلتقي بالأئمة والتحدث إليهم مباشرة والبث بترهات غزت القلوب والعقول.

******

ثورة الجهل على العقل قامت قيامتها منذ سنين ولم يردعها رادع.

وأمّا هؤلاء السحرة من الدرجة الثانية، الذين يرتبطون بدائرة شيطانية وبطريقة غير مباشرة. سحرة العمل بدون العقيدة، أي الذين يُعظّمون الأسماء الشيطانية والطلاسم التي يتعرفون عليها من خلال الكتب والمكائد ويطلق عليهم المشعوذون.

* * * * *

وسحرة الدرجة الثالثة هم المنجمّون ـ العرّافون ـ أو الفلكيون ممن ينبؤون بالغيب، ومن يضرب بالرمل ويقرأ الفنجان.

فيقوم المنّجم بتوقع الغيب عن طريق الكواكب السيّارة والنجوم وتأثيرها على الإنسان، وهو من يُبيّن الأبراج الفلكية من: اعرف برجك.. وإلى آخره.

والدرجة الرابعة والأخيرة من السحرة:

صاحب ألعاب السيم، وصاحب من يُسمى بالقوة الخارقة، في السيرك وآكلي الجمر ومخيطي الوجوه، وقاهري العفاريت.

–23–

كانت الغادتان تجلسان في مجلس القهوة بدار «حميدة» مع «صفية» زوجة ـ جودت بيك ـ الأخـيرة كانت لماعة البشرة من شـدة بياضها، نجلاء العينين، زرقاوين تأسر القلوب بنظرتها الرعدية، فتردع أقوى الفحول، لو ابتسمت عن أسنان ناصعة البياض، وصوت كرنين النحاس.

وشت الجلسة عن عدم رضاها على زوجها ـ جودت بيك ـ ولعبت حميدة دور المـرأة التي أخذت على عاتقها حل المشـكلة، بين كل رشـفة فنجان وأخرى تفتح فاها وكأنها تسـمع المشـكلة لأول مرة، وتمسح على بطنها المنتفـخ تارة بفخر، ولكن حركاتها المستفزّة لم تثر في نفس صديقتها أي ردّة فعل سلبية أو إيجابية.

صفية تعاني أيضًا من مشاكل عدم الحمل، متزوجة من سنين ولم تظفر من بعلها بوليد يغنيها عن كل شيء.

تشـكي بحرقة من غياب زوجها لأيام طويلة عنهـا، ومن التغيير الذي طرأ عليه فجأة، ثم أطرقت في حزن بالغ، ولازمت الإطراق كأنما أخذت

سِنة من النوم، حتى رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في عينيها أعمق مما قدر، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها:

ـ تخيلي أتوسل إليه أن نزور الطبيب فيتجاهلني ويقول كله بأمر الله حتى توقف عن معاشرتي، وكأنه يعاشر غيري.

فوقع كلامها كطلقة نارية على نفس حميدة، فإذا بكل شيء حولها يتغير ويتبدل سريعًا، ويكفهر الجو لولا حميدة بادرت بالإسراع وغيرت مجرى الحديث:

ـ لا عليك سأفكر بحل الحمل، أعدك بذلك.

ـ كيف؟

ـ الكيف اتركيه عليَّ، دعيني أضع حملي بسلام وبعدها لن أتوانى عن مساعدتك.

صفية ستعمل المستحيل لكي تظفر بطفل، وحميدة يلمع الانتقام بين عينيها لتنتقم من المرأة التي خطفت عشيقها بلمح البصر.

كانت صفية كلما تكلمت أمام حميدة.. تستحضر في ذاكرتها أوقاتها الجميلة مع زوجها.. تتكلم بحنان عنه ومعاشرته اللذيذة لها، ودّت الأخرى لو تلطمها، ويا ليت قذيفة تصيبها على رأسها بغتة فتنثرها إربًا إربًا، وتثأر بها أفظع الثأر.

كان يتوهـــج في عينيها بريق مخيف تطاير من تحت جبهة عابســة مكفهرة تجمعــت في أخاديدها نذر الــشر والوعيد، كانت تودّ وهــي تفغر فاها لتطلق قذيفتها.

ولكن لســانها لم يتحرك، تُفضّل الاســتماع، التصق لسانها بسقف حلقها، كأنما جذبه إليها مخها الــذي لم يعمه العناء عن البلاء، كانت تفرغ غضبها في فنجان القهوة بالعصر واللعن في داخل نفســها تارة، تتصنع ارتشاف القهوة وهي تســتمع بآذان صاغية ما يفعلــه جودت بصفية وكيف كان يعبّر عن ودّه وهو يداعبها قبل الجماع، تتظاهر بالابتســامة والحقد يكاد يحرقهــا.. ودّت لو تلتقي به لتخنقه على السرير.. الكذّاب والأفّاق كيف يقــول ويحلف لها بأنه لا يلمس زوجته ولا يشــعر بها.. وها هي زوجته تتحسر على ما مضى من علاقات حميمــة.. هنا تعيد الفنجان إلى الطاولة وتصب قهوة أخرى وتستمع بغيظ النساء إلى صفية.

اللحظات الرهيبة كيف ستمر مع صفية؟ كسرعة الزلزال الخاطف الذي يشــعر فيه الإنسان بأنفاس الموت تتردد على وجهها لحظات ثم يعود كل شيء لمستقره.

كانت تلقي عليها نظرة مظلمة بالمقت وكأن الأريكة ترتج من تحت قدميها على أثر نبضات قلبها، اقتحمت صفية صلب الموضوع وهي تُحدّث حميدة

ما لا تطيق سماعه، تحدثها عن المعاشرة الجسدية، الحميمة، كيف لم يستغنِ لحظة ساعتها من دون أن يضاجعها بحمية الزوج الهائج. كالبحر عندما يكتسح الرمال، ويضرب الساحل بدون موعد. وكيف أخبرها أنه مولع بها حـــد الجنون، ويتوق إلى مضاجعتها مـــن دبرها فرفضت هي بدلال، وجعلته يهيم في حلمه دون أن ينال مطلبه.

ـ مجرمة.

رددت حميدة بحنق في نفسها.

رنت إليها صفية ببسمة لطيفة وقالت برقة وإغراء:

ـ لم يطأني أحد من دبري.. إنه أمر قاس.

ثم فجأة تراجع رأسها في قلق كقطة أقبل نحوها كلب:

ـ وكيف سيطؤني وقضيبه كنصف ذراعي، سيشق أبو الخلفني.

شـــقت بضحكتها روح حميدة التي ارتعدت منها، ودّت لو انقضت على رقبتهـــا وتكسرها.. ولكن اللقـــاء الأحمق الذي جمع بينهـــما لا ينتهي.. فواصلت صفية الكلام.

–24–

استدعى مدير أمن البصرة ـ جودت بيك ـ إلى مكتبه الفخم وأبلغه بالانتشار غير الطبيعي لظاهرة السيد سامي التي تفشت في ناحية الهارثة النائية ـ شمال شرق محافظة البصرة ـ واتسعت شيئًا فشيئًا لتكون ظاهرة محلّية بين محافظات الجنوب العراقية.

حيث يسود بين الناس إشاعات قوية بأنه ولي من أولياء الله وسماع أوامره وطاعته هو من طاعة الله، ولربما سيدّعي بعد فترة بأنه «المهدي المنتظر» ويُصدّقه الكثيرون وسيؤيدونه.. لأنها مناطق بدائية وانطلاء الحيل الدينية عليهم أمر سهل للغاية تحت غطاء ديني بحت. وكان المدير يتطلع على صور السيد ثم ما لبث أن بسطها أمامه قبل أن يدخل عليه ـ جودت بيك ـ. وما إن حضر الأخير حتى زادَ مزاج المدير تعكّرًا أكثر.. وسمح للضابط الشاب بالجلوس.. لملم الصور بامتعاض وانزعاج بان بوضوح على ملامح وجهه.. وأعطاها إلى جودت ليسمع منه تفسيرًا حول الانحلال الأمني الواضح في منطقته كضابط أمن يدير عمل معاونية أمن الهارثة.

ـ أكثر من سنة وهذا الغراب العجوز ذو العمامة السوداء يتسلطن على الناس، وحضرتك نائم، أين رجالك وأين تقاريرهم يا أفندي.

قال الكلمة الأخيرة بسخرية بالغة وواضحة ولكن بهدوء الرجل الحكيم، ازدرد الضابط ريقه بصعوبة وحرج قائلًا بحشرجة:

ـ سيدي أنا أتابعه منذ مدة ولكن لم يصدر منه شيء يدل على أنه يقوم بنشاط معادٍ للمملكة أو كلمات تسيء إلى جلالة الملك المُعظّم.

ـ يا سيد جودت.. أيها الضابط.. النشاطات المعادية ليست فقط أن تقوم على شكل سياسي مباشر، الدّين أكبر نافذة للمساس بالسياسة وأمن البلد، هؤلاء الدجلة هم أذيال دول تريدُ لنا الخراب وتُعارض قيام مملكتنا، وبمرور الزمن سيكونون أمراء تنظيم وسيكبرون مع الوقت لتطيح بنا.. الدجلة المتدينون يؤثرون على عقول تلك المناطق النائية، لا تنسَ أن إيران تتغلغل في جنوب العراق منذ أمد طويل، الشاه علماني ولكنه يعلم كيف يُدخل تنظيماته ويتلاعب بعقول الرجال، هم يزرعون عيونًا ونحن نقلعها بمرور الأعوام.. لم أستدعِك لألقي عليك محاضرة يا سيّد، ساعة من الزمن أريده هنا، أريد التكلم معه، هذا الوقح لا أعرف كيف يفكر وإن تركناه فهذا ليس لصالحنا.. نفذ الأمر الآن.

وما كان من جودت إلا أن وثب منتصب القامة مشدود الذراعين إلى الأسفل قائلًا بصوت ملّبٍّ للأمر:

ـ تمام سيدي، سيكون عندك اليوم.

غـــادر المكتب قلقًا.. ولكنه كيف ســـيبادر بجلب شـــخصية أثّرت على منطقة بكاملها؟ لا أحد يجـــرؤ على ذلك لا من قـريب ولا من بعيـد.. كيف يرفع عينه ويلصقها بعين السيد الذي يغدقه بالخيرات، علاوة فالسيد تغلغل وأصبح كإله على الأرض ويُقدّس بين الناس أكثر من أي شخصية دينية أخرى.

فكيف ســـيقبض عليه.. ويحفر بيديه نهايته كضابط، لأن أهل القرية لن يرحموه على جريمته، وســـيلقي بنفسه في أتون المعركة بدلًا من أن يعيش بسلام بينهم ويتمتع من خيراتهم.

ثم غمغم وهو يفتح باب السيارة بنبرات نمت عن اليأس:

ـ والهدايا التي تأتيني كل يوم؟ وشيوخ المنطقة الذين عاهدتهم على حماية مصالحهم في المنطقة؟ مجنون حضرتك أيها المدير.. ولكن لك ما تريد.

تنهد بحيرة مسموعة وقلق فإن لم يتصرف بحكمة في هذا المأزق العظيم، فستكون حياته في تهلكة إلى ما شاء الله.

–25–

لن يســتطيع أن يعتقل الســيد بنفســه، فهو لا يريد أن يفتح على نفسه نيرانًا صديقة من العشــائر الجنوبية المؤيدة للسيّد، والأفضل إرسال أحد الضباط لإتمام المهمة ذلك أسلم حل.. وإن تأزمت الأمور فسينكر علمه بالأحداث ويكون في مأمن من شرّ الأهالي والشــخصيات العشــائرية ورجال الدّين.

وفعلًا كلّف جودت ضابطًا شجاعًا لهذه المهمة.. شاب في الخامسة والعشرين قــوي البنية يمتلك ثقة عالية في النفــس، فاغتبط بدوره لإناطته بهذه المهمة من قبل الآمر ـ جودت بيــك ـ الذي طالما انتظرها بفارغ الصبر، وهو إلقاء القبض على دجال استولى على نفوس الناس بشعوذاته بمكر ودهاء.

فسِلك النظام هنا منتشر.. ولكن من سيظفر في النهاية؟

فلا قانون يردع هذا السيد، لأن لا أحد من رجال الدولة فكّر بأن يردعه، على العكس هناك من تهاون معه وباع نفسه لعطايا السيّد المُغرية. اشتروا الدناءة وباعوا القانون.

الناس باتت تؤمن به أكثر.. تحتفظ بصوره كرجل مقدس.. ممنوع لمســه دون وضوء.

تحــرك غضبه الباطنــي وسرى في شرايين دمه.. يكادُ أن ينفجر من شــدّة العنف على الســيد المُقدّس.. إنه يؤمن بقتل رجال الدين كما فعل أتاتورك عند إقامته الدولة التركية العلمانية الخالصة.

نعم هم من يقصدهم الله في القرآن ـ المُفسدون في الأرض ـ.

وكانــت في هذه اللحظة قد انطلقت ثلاث ســيارات، مفرزة مكوّنة من عشرة أشخاص وكانوا متحفزّين لأي طارئ.

رجال الأمن من بينهم الضابط الشــاب كانوا يرتــدون ملابس مدنية، حيثُ كانت ســياراتهم تمر بسرعة خاطفة من بــين بيوت الطين.. ليولّد الرعب في نفوس الأطفال والنســاء ويُهرعــون للاختباء في بيوتهم، بينما تخلف السيارات المسرعة وراءها عاصفة رملية هائلة..قبل أن يصلوا إلى بيت السيد وتهدأ العاصفة الرملية التي خلفتها عجلات السيارات.

توقفت الســيارات بشــكل عشــوائي على مقربة من بيته، كانت الدار مزدحمة بالزائرين ينتظرون في الخارج، بســبب عدد الأشــخاص داخل الدار لا يسمح بدخول آخرين، الزائرون كانوا ينتظرون في طابور طويل ليحصلوا على الإذن ويدخلوا على مولاهم العتيد.

شــخصيات حاضرة في ديوان الســيد، من وجهاء عشائر، ومن طبقات مختلفة من الشعب، ويُلاحظ ذلك من خلال عربات الخيول الفاخرة التي تنتظر أمام بيت السيد. كل من جاء يُقابله إمّا ليبث شكواه إليه ويتوسط لدى الســيد لنيل رضا الله والتبرك عنده، أو يزوره حُبًّا لشخصه كرجل

دين مبارك به ولينفح السـيد بالعطايا والهدايا، أو سـعيًا للحصول على حرز حسب الطلب ونيل رضا آل البيت في نفس الوقت.

عندما رأى الجمهور حضور مفرزة الأمن تنبؤوا شرًّا من مقدمهم، فمثل هذه الزيارات عادة لا تنتهـي على خير أبدًا، بل يضمرون الشر كعادتهم على رجال الدين، ولاسـيما أن أهل القرية يعلمون بأن السيد سامي بات مصدر قلق للدولة.

وقد حان الوقت للجهر بالعداء لهذا السـيد. ولكن هيهـات ثم هيهات، تكاتفوا ليكونوا جدارًا يمنعون رجال الأمن من دخول الدار.

فاختلطت تياراتهم، الصغير والكبير والفقير والغني معًا لحماية مولاهم.

ساد الصمت المخيف الذي ينذر بشر لا حدّ له سوى الموت أو الانسحاب.

وقـف الضابط أمامهم بحنق، وأخذ يحدّجهـم بنظرات غاضبة على هذا العصيان المفاجئ. صاح بهم بلا جدوى، سمع صدى صوته يتلاشى مع الجو، فأدرك أنهم مجتمعون على عقيدة يصعب تفريقها حتى ولو بالسلاح.

حـاول أن يجرب معهم أسـلوب الحوار المُتمدّن ففشـل، ضحكوا عليه وسخروا من سماجته.. قالوا له ـ روح العب غيرها ـ.

أراد أن يقنعهم بأن السـيد سـيحلّ ضيفًا كريمًا ويكون بأمان ولا داعي للقلـق.. وأن ما يفعلونه ضد شرعية المملكة وعصيان مدني يُعاقب عليه القانون الملكـي، ولكنه لم يجد غير زيادة في غضبهـم من خلال الأعين الصامتة التي تقدح شرًّا ونقمًا على رجال السلطة.

حتى قطع الصمت صوت صرير وانفراج الباب الخشـــبي ليظهر السيد من خلفه بهدوء.

رماه الضابط بنظرة تدل على الحقد.. نظرة متقهقرة بعض الشيء، لا معنى لها ســـوى الهجوم والانقضاض على هذا الشـــيطان.. ولكنه لن يستطيع فعل أي شيء بسبب الأهالي الذين يتزايدون شيئًا فشيئًا لحماية مولاهم.

وقف الولي الآن بمسبحته الطويلة خلف الناس، هادئًا لا يُصدر صوتًا سوى صوت الأصابع التي تناجي المســـبحة.. بينما الضابط كان يقذفه بنظرات ثاقبة ومريبة وقد عبس وجهه وتطايرت من قســـماته نار الغضب من خلال صفحته المكفهرة، ابتسم السيد فجعل يردد بصره بين الضابط وبين الجموع بهدوء ظاهر ومكر دفين.

انتبـــه الناس إلى الضابط الذي حاول اختراقهم ولكن عبثًا يحاول، ســـدّوا الطريق بأجسادهم ولوّح من كان يحمل سكينًا أو عصا بأيديهم عاليًا، كإنذار للضابط على أن ما سيقوم به لن يمر بسلام.. سيدافعون عنه حتى لو وصلت الدماء إلى الرِّكابْ.

دفع الضابط أحدهم ليخترقه نحو الســـيد وما لبـــث أن صاح أناس لا حصر لهم:

ـ يريد اعتقال السيد امنعوه..

ومنهم من ردّد: اقتلوهم.

وسرت في المتجمهريـــن حركة عنيفة، حتى أسرع رجـــال الأمن لحماية الضابط، الذي ما لبث أن أمرهم بإخراج أسلحتهم، تمتم على مسدسه ثم صار يصيح بحزم كأنه استمد شجاعتهُ من وجود سلاحه:

ـ إن لم تعدلوا عن غبائكم فسوف تندمون، أنتم تتحدّون القانون، أكررها لا تتغابوا وستشقوا طوال حياتكم على تصرفكم.

سرت في المتجمهرين هذه المرة حركة عنيفة، فأقبل متحمسون من كل صوب ملوّحين بالعصي والسكاكين والمراكيب حتى ارتعد الضابط وانسحب بين مجموعته بحكمة، وأصبح بينه وبين الغاضبين مسافة طويلة.. فرِسِخَ عنه بعض الحماسة التي كان يتمتع بها حين أتى ليعتقل الرجل.. ولكنه نجح أن يجمع جأشه ويصمد أمام هذا التيار العشوائي من الناس الغاضبين، دارت عيناه فيما أمامه يبحث عنه، فلمحَ وجه غريمهُ السيد.. الذي وقف بثبات وشجاعة خلف الحشد، كانت عينا الضابط تفوران بالغضب والبغضاء، حتى تقدم بحركة غريزية وصوّب مسدسه وأطلق رصاصة نحو الهواء وهو يصيح بصوت جهور:

ـ الرصاصة الأولى في قلب السماء، أمّا الثانية فسأصوّبها في قلب أحدكم.

ارتعد البعض.. وثبتت الأغلبية على عنادهم، ولكن في النهاية لم يجد الضابط من المتجمهرين من يتراجع عن عناده، فاستفزّه تصرف الناس.. فغضب بشدّة حتى ساد صمت فجأة.. حتى قطع السكون صوت السيد:

ـ دعوه ـ صاح بحنق ـ هؤلاء جاؤوا يقصدوني فدعوني أتفاهم معهم قبل أن تُراق دماء أبرياء.

تجاوبت في أرجاء المكان دمدمة غاضبة، تعالى الهتاف هنا وهناك «ليسقط أعداء آل البيت» وصاح غيرهم «أدّبوا أولاد الزنا»، «الكفرة أحفاد يزيد».

عندئذ تقدم السيد شاقًّا صفّ الحشد الغاضب، واثق الخطى ثابت الإرادة، رغم محاولات سـارية منعه من التقدم بجذبها وشدها لذراع والدها الذي نحّى سارية جانبًا.. ظلّت تمسك به، حتى تجاهلها ونفض يدها عنه.. كانت تحاول منعه من التقدم ولكن محاولتهـا لم تثمر في صد والدها عن التقدم، فسحوا له الطريق، وتقدّم نحو الضابط بعينين ثاقبتين.. تُركزان على وجه الضابط بحدّة، رمشـت عينا الأخير وكأنه ينظر إلى شعاع الشمس، فرك عينيه وما إن كفّ عن الفرك وفتحهما.. حتى انتفض من مكانه عندما رأى السـيد ثابتًا أمامه كالصنم يثقبه بنظرات جليدية، هنا تغيّر الموقف، بادره السيد بقوله:

ـ أنا جاهز لأحضر التحقيق أيها الضابط.

ـ أ... أ.. السيد المدير طلبك وعلينا تنفيذ أوامره.

ـ حسنًا ما دام هذا ما يطلبه سيّدُك فأنا قادم.

لكـن الغضب بلغ بالناس مداه، شـكلوا على هيئـة نصف حلقة حول الاثنين وهـم يتدافعون بالمناكب وكأنهم يتأهبـون للهجوم كأكلة لحوم البشر عندما يثيرهم قطعة لحم نيئة.

كانـوا يتوعـدون الحكومة والضابـط شرًّا.. في حال لـو حصل مكروه لمولاهم، فأطلقت أصوات السـيارات عاليًا كالهدير قبل أن تنطلق مُرحبةً بالنصر.. والناس يهتفون ملوّحين بأيديهم:

ـ علي وياك علي.. علي وياك علي...

وبعزم لا يُقهر رفع يديه وهو يزعق بالجمهور قبل أن يستقل السيارة:

ـ اســمعوا يا شــيعة علي الكرام، هو عبدٌ مأمور، والمدير له كل الحق أن يحقق معي، ولا تنســوا أنهم علمانيون وعقولهم ليست بمستوى عقولنا التــي كرّمنا بها الله بحب الدين وآل البيــت، ولا بد أن هناك من أبلغهم بأنني مشتبه به، وعليه سوف أذهب وأقابل المدير وأحل المشكلة ولست قلقًا لأننــي أعرف أنكم لن تتركوني. «قال الجملة الأخيرة وهو يحدج في عين الضابط متعمدًا كرسالة تحذير».

بهذا أنهى حديثه الخطابي، حتى ساد الصمت المرير، وأمر السيد بالناس أن يفتحوا الطريق لكي يتســنى للســيارت التحــرك. الصمت وحدهُ الطاغــي في هذه الســاحة، وأيضًا طغى الصمت الثقيــل على الضابط بعدما كان مليئًا بعزيمة الرجال، ولكن لم يكن يتصور مدى خطورة هذا الرجل ومدى اســتماتة الأهالي لإنقاذه.. حينها أدرك الضابط بأنه أمام رجل ذي نفوذ والوقوع عليه مؤذٍ.. كالرجل عندما يقع على كومة حديد وتتكسر أضلاعه.

ـ هيا أيها الضابط أنا مستعد.

وببطء غــير معهود أمر الضابط مجموعته بالمغــادرة.. متجهين نحو مقر مديرية الأمن العامة في هدوء غير مرحّب به من قبل الجميع.

–26–

كان المســـاء يزحف في خطوات حاسمة غاشيًا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب، حين أُحضِر الســـيد إلى المديريـــة، وبالتحديد إلى غرفة المدير.. التي كانت محاطة بهالة من الأضواء زادت من المكان رهبة وجمالًا.

ولعل المدير لم يعدل بسروره بهذا المســـاء، الذي قـــل أن يُرى بها مسرورًا، إلا زهوه بإحضار سيد سامي له، كأنّه صيدٌ طال انتظاره.

مثُل السيّد أمامه، لم يســـمح له المدير بالجلوس حتى على الأرض، وكأنه يتلذذ بإهانة السيد، فلم يردّ حتى على تحية الأخير له.. بل قذفه بوابل من الأســـئلة التي لا حصر لها.. ففوجئ بها السيد ولكنه أجاب على كل شيء بـــذكاءٍ وأدب.. وبدون أن يثير أيضًا غضب المديـــر العارم عليه، يتلمس أثر ردة فعل أجوبته في وجه المدير، ويتهيأ للسؤال الأقذر.. فليس لهؤلاء الأوغاد سؤال شريف ومحدّد.. الكل أولاد قحبة.. حتى هذا الثور الكبير برأس التيس لا يقل عن السفلة بشيء.

ـ إذن ما رُوّجَ عنك تعتقد أنه إشاعة.

ـ سـيدي المدير أنا معـروف في الهارثة وأنحائهـا.. وتقريبًا أكثر مناطق جنوب العـراق يعرفونني.. وزياراتهم شيء طبيعـي لي.. ومثل هذه المظاهر تراها حاضرة في النجف وكربلاء، فما الغرابة أن يكون بيتي مركز زيارات الأحباء والمُخلصين؟.

شدّ المدير قوس حاجبه ثم قال محتجًّا:

ـ مظاهر عادية؟ صورك تُباع في الطرقات وفي الدكاكين.. الناس تحلف بك، وقد وضعوك في منزلة النبي وتقول مظاهر عادية.

أحنى السيد رأسه مغمغمًا:

ـ أستغفر الله .. وما بيدي أفعله لهم.. أمنعهم سيدي المدير فأنت القانون هنا وتعرف أكثر مني بهذه الأمور، هل تظن بأنني سعيد بذلك؟

ـ بالطبع أنت لسـت المسـيح.. ولا حتى نبي، ولكنـك انتشرت بينهم كمرجع ديني وتكاد أن تبلغ مراتب أعلى.. من يدري.

هنا احتدّ صوته واشـتعل الغضب بداخله شـيئًا ما، ولكن السـيد كانَ يحافظ على هدوئه وابتسـامته وكأنه يتكلم مع صديق قديم.. وتعامل مع الموقف بأريحية تامّة:

ـ كل شخص حُرٌّ في تقديسه لمن يُجلّ ويحترم ما داموا لا يؤذون أحدًا.. إذا كانوا يريدون ذلك فهذه هي درجـات عقولهم.. إنهـم مُخيّرون..

لو كانت لديهم ذرّة عقل لأيقنوا أني بشر عادي والواسطة غير مطلوبة بين العبد وربه.. وأنا نفسي لا أضمن إن كانت دعوتي مستجابة أم لا، وفي نفس الوقت لست ساحرًا أو أفاقًا، أنا رجل بسيط لا أبغي سوى العيش الكريم.

داخل السيد سرور ماكر، لاحت في عينيه الحكمة والدهاء، ركز في عيني المديـــر بهدوء وأدب حتـــى احتار المدير في اختيار كلامه، فكلام الســـيد منطقي ولا شيء يدعو لأن يعتقله أو يهينه، ولربما بمرور الزمان ستنجلي أشياء لا يعرفها بعد.. ولكن كل شيء في وقته مُستحب.

لاذ بالصمت الآن، فمضى يسأل والســـيد يجيب بذكاء.. وينجو من فخ الأســـئلة بمهارته، وكان يجيب بلا تلكؤ وبكياسته المعهودة، رغم الحقد الذي يهيج بداخله على المدير..

الحديث دار في جو مشـــحون، مع العقيد حاجم الذي لا صلة له بالتدين لا من قريب أو من بعيد، كان شعاره:

«الخمر والنساء».

أمّا الدّين ورجاله فكان يمقتهم بشـــدّة، وعندما حلّ سيد سامي عليه في هذا المساء الهادئ، كان في ودّه لو لديه صلاحية إعدامه.. بل وإعدام كل رجال الدين على الفور.

فجأة سمح للســـيد ســـامي بالجلوس.. تغيّر موقفه وأظهر بعض اللّين معه؟ رغم ما يجيش في صدره من حقد عليه.. وما دام الإعدام مستحيلًا

فلماذا لا يحاول كسبهُ إذن، ألف صديق ولا عدو واحد، فهو قد خَلق لنفسه هالة وقدسية عظيمة بين الناس.. وليس ببعيد أن تتفوق قدسيته بعد فترة من الزمن على قدسية الملك نفسه.. ويتحقق الانقلاب الديني على العلمانية فتفسد الدولة ويتوه العباد.

وسيسمعه الجميع.. وستكون مناطق الجنوب تحت تأثير حركته الدينية وسينجح في تجييشهم لو أراد ذلك.

وهكذا سينجح في قلب الشعب على الحكومة الملكية بالتعاون مع جهات معادية.. فهناك أعداء يتربصون لمستقبل العراق ولا سيما أن الحرب الباردة قائمة على الملك.

*****

رجال الدين في العراق أغلبهم يُعدّون مرجعيات، ولهم كلمة حادّة كالسيف يغير الواقع الجنوبي للعراق في ليلة وضحاها.

لو يُعتقل هذا السيد الآن، فهذا سيكون الغباء بعينه.

حينها سيخرج أكثر الجنوبيين، لنصرته، فهو بعينهم «السيد سامي» ـ قدّسَ سِرّه ـ حفيد آل البيت كما يدّعون، وتركه بلا مراقبة هو الغباء بعينه، ولا سيما أن عيون الأعداء يبتهجون بهكذا مظاهر باتت تسود في أرجاء المملكة وسيدعمون كل ما يخدم مصلحتهم.

اتقاءً لتكدير المدير قال السيد:

ـ سيدي، أرجو أن تُعلمني إذا أنا أخطأت شيئًا، وجلّ من لا يسهو، فالزائر الذي يأتيني إمّا يأتي لفتوى أو لحل مشكلة من مشاكل الحياة التي تكدر صفوهم.. ويعلم ربّ السماء أني كنت منصفًا في كل شيء وخادمًا أمينًا للكل، ولا أطمع إلا بالآخرة.

لاح في تقارب حاجبي العقيد حاجم صيغة مناسبة لأول مفاوضة حتى قال دون تردد:

ـ حسنًا، ولكني أريدك في الوقت نفسه أن تكون عينًا على أمن الوطن وعينًا ساهرة ضد كل من تسوّل له نفسه المساس بشخص الملك.

رفع السيد حاجبيه وسأل:

ـ كيف لا.. وهل تعتقد أنني لا أفكر بذلك؟ ولكن سيدي المدير هل هناك شيء ما أضرّ بأمن المملكة؟

ـ لا، والأمن موجود ومستتب.. ولكن كما تعلم فالغرباء يستغلون الأهوار هربًا من شاه إيران ويدخلون أراضينا بشكل غير قانوني.. نريد منكم توجيه أتباعكم بإبلاغ السلطات عن هذه الخروقات.. وتبلّغون أيضًا الجهات الخاصة كل شاردة وواردة من شأنها أن تقع.. وأن تُبلّغ حوزاتكم عن رجال الدين المندسين والقادمين من إيران إلى المملكة بدون أوراق رسمية.

– تأكد سيدي المدير بأنني سأكون أول من سيبلغ عنهم فأنا ضد كل من يحاول الإساءة للمملكة.

بهذا الحديث خُتم اللقاء وغادر السيد بعد أن مدّ يده للمدير الذي صافحهُ بدوره.

******

كان البلد عند تأسيس الإنكليز الدولة العراقية الحديثة غير مستقر تمامًا، بسبب ثورة العشرين التي قامت بها عشائر الفرات الأوسط وبدفع من رجال الدين من أهالي الجنوب بأنفسهم، فوقفت القيادات الدينية ضد أغلب الإجراءات الضرورية لبناء الركائز الأساسية للدولة الوليدة، الفتية، وذلك باتخاذهم مواقف متشنجة ومتشددة ضد السلطة، فوقفوا ضد المعاهدة البريطانية ـ العراقية التي ما كان بالإمكان الاستغناء عنها في تلك الظروف القاهرة، وإلا لقامت تركيا بإعادة احتلال العراق، أو على الأقل إلحاق الموصل بها.

وفي عام 1922 نشر المجتهدون من رجال الدين في جنوب العراق فتوى عن الانتخابات ورد فيها:

«صدر منا تحريم الانتخاب في الوقت الحاضر لما هو خفي على كل باد وحاضر، فمن دخل فيه، أو ساعد عليه، فهو كمن حارب الله ورسوله، وأولياءه، صلوات الله عليهم أجمعين».

وقد طرد الملك فيصل الأول وقتها شـــيخ الشريعـــة الأصفهاني وآية الله النائينـــي والخالصي وكبار المراجع الفرس المشـــاغبين مـــن النجف عام 1922 إلى قم.

حيث لم يوافق جلالـــة الملك على عودتهم حتى طلبوا العفو عام 1924، فسمح لبعضهم أن يعود شرط احترام القانون.

وكان من الضروري للملـــك فيصل الأول أن يفعل ذلك في بداية عهده لتركيز احترام الدولة والقانون.

وشكل تأسيس العراق الحديث لموقع إيران في الخليج العربي ولمصالحها الاقتصاديـــة في المنطقة توترًا كبيرًا.. وســـعت الحكومة الإيرانية دائمًا إلى الحفاظ على تأثيرها في هذا البلد، وتعكير الشؤون الداخلية العراقية.

والحق أن إيران كانت تحاول باستمرار إضعاف العراق وتتمنى لو تجهض أي محاولة لتأسيس جيش وطني عراقي.

وفي عـــام 1925 ربطت الحكومة الإيرانية اعترافها بالعراق بقضية حماية العتبات المقدسة لكن عامل الزمن والدعم البريطاني كان ضدّ إيران.

وهكذا كان جهاز الأمن قلقًا من ظهور أو صعود شخص قد يكون مموّلًا من الغرب أو من أي جهة أخرى معادية لتغيير مسار السياسة في العراق وربطها بالدّين.

–27–

ـ حسنًا كل شيء يبدو طبيعيًّا، بدأ التمدد.

قالت القابلــة، كانت امرأة جميلة قصيرة القامة ونحيفــة، ترتدي رداءً طويلًا، وكانت حميدة تخفي وجهها بين الوســائد مع كل تقلص، لكنها لم تكن تبذل أي جهــد، كان الاضطراب ســائدًا فأيقن «رفعت بيــك» من وجوب إحضار الطبيب.

الدقائق تمر ببطء مثير للغيظ، لا يُسمع سوى صراخها وغمغمات خافتة، كان «رفعت بيك» يسأل الخدم فيما لو أن سائقه وصل مع الدكتور أم لا؟

وفجأة وبعد أقل من ساعة تقريبًا سُمع أحد الخدم ينادي من باب القصر:

ـ بسرعة لقد وصل الدكتور.

يدخل الدكتور مسرعًا، أخذ رفعت بيك على عجل ليقوده إلى غرفة النوم، ثم قال رفعت بيك وهو يلهث من الاضطراب، كفريسة لهياج غريب:

ـ لقد بدأ الأمر يا دكتور.

ـ هل تشعر بآلام؟

ـ منذ أكثر من ساعة، كل دقيقتين.

وقبــل أن يدخل الدكتور نقر الباب بمفاصــل أصابعه قبل الدخول إلى غرفة النوم التي تتواجد فيها حميدة.

بصوتٍ مختنق أجابت إحدى الخادمات:

ـ أُدخل.

دخل الدكتور مسرعًا وبقي رفعت بيك في الخارج ينتظر، بينما وجه زوجته في الداخــل يتقلص من جديد، جلس الدكتور على كرسي خلع الأحذية، عندما سمعها تشتكي أدار وجهه لها:

ـ اضغطي.

ـ لا أستطيع يا دكتور.

نهض الدكتور من مكانه ثم قال «رأس الطفل هنا، إنه صغير».

مرّ أكثر من نصف ســاعة ولم يتغير المشــهد والقابلة تحاول جهدها لكي تخفف عن حميدة تعاستها وبجانبها الخادمتان.

انتابها الألم فقال الدكتور:

ـ اضغطي بقوة.

تقلّص وجهها، لكن عندما اختفى الألم، بدت متوترة وكان صوتها واهنًا، تردّت حالتها وبدأ القلق بالتصاعد.

بعد ساعتين وبالتحديد ـ 12 ـ صباحًا كان التمدد مكتملًا بالفعل والطفل لا يخرج، وحميدة تصرخ ولكنها ما زالت لا تُسهم من جانبها بأي شيء لكي تكلل العملية بالنجاح.

عندما اختفى رأس الصغير من المخرج، وبدلًا منه ظهرت ذراع صغيرة براحة يد مفتوحة مهتزة، كأنها تودع أو تحيي.

ظلت الذراع هناك، ساقطة ومترهلة مثل قضيب بين ساقي حميدة المنفرجتين، خرج الدكتور عن طوره وشعوره وقال محافظًا على هدوئه:

ـ اللعين يقوم بالالتفاف، كأنه شيطان.

قامت القابلة بدهن ذراع الصغير بمادة أخرجتها من حقيبتها وبحركة سريعة ومحترفة وخبيرة، أعادت إدخاله إلى بطن أمه.

أمسك الدكتور بكتفي الوليد بأصبعه النحيفة، وبمهارة شديدة أداره بحيث وضع الرأس الصغير مجددًا في مدخل فرجها.

أخذت حميدة تصرخ وتسب من دون وعي كل شيء، ورغمًا عنها، شعرت بقوة متراكمة في الحوض، صرخت، وضغطت بكل قوتها بينما تشجعها القابلة.

ـ نعم، هكذا، هكذا، أنت قوية.

وفجأة..

كأنّهُ مقذوف.

انطلقــت قطعة دموية من اللحــم الوردي مندفعة بقــوة، تراجع رأس الدكتور لتفادي التصادم، وحطّ الوليد على الفوطة البيضاء التي تحملها القابلة بين ذراعيها خَلْفَه بقليل.

حميدة تشعر الآن بالإنهاك، خائرة القوى.

ـ طفلٌ ضئيل، يبدو قطًّا صغيرًا.

قال الدكتور متطلعًا بدهشة واستغراب للوليد الضيف.

–28–

حينما عاد السيد إلى داره، كان يجتهد في تهدئة نفسه المطوّقة وهي تضرب بجناحيها مستريعة على حد السكين. لاقوه المئات من الحشد، بالترحاب والصلوات على النبي وآله، ولما انفرط الحشد، دخل الدار مع ابنته وزوجها ليرتاحوا ويجلسوا جلسة شاي عائلية ويثرثروا فيما حدث وما يجب صنعه في المستقبل.

يلامس لحيته، يفكر في صمت، تعمق في التفكير بشكل أثار انتباه ابنته وحمدان، صبّت سارية الشاي بشيء من التوتر ولكن رغم ذلك فالابتسامة لم تغادر وجهها الجميل، كان حمدان يتمتع براحة نفسية لم يعهدها من قبل، لأنه أحسّ بأنّ السيّد لن يقلق بعد الآن من مواصلة ممارسة طقوسه الدينية، وما دام المدير قد أطلق سراحه فهذا يعني أنه سيظل بخير.. ولن يتكلّف أيضًا مجددًا بمجازفة حمقاء من شأنها إيذاء السيد وخصوصًا بعدما هاج أنصاره وكادوا أن يستميتوا لنصرة السيد.

بعد أن تبادلوا أطراف الحديث.. بادر حمدان بسؤال اعتبره السيد أحمق وبلا شك:

ـ عمّاه، أرى أن المدير قد اقتنع بأنك أخيرًا لست ممن يضحكون على الناس ولا غبار من مكانتك المقدّسة بينهم، لماذا لا تمد معه حبل الصداقة وتكسبه.

تطلع السيد إلى حمدان بنظرة يكسوها الغضب والحنق، وكاد أن يطلق من لسانه: لو لم تكن زوج ابنتي لنكحتك أيها الثور البرّي، ولكنه عدلَ عن هذا اللفظ ثم أردف:

ـ لو كان بيدي لمددت الحبل إلى رقبتك وعلّقتك منه في السقف، ألم تفهم بأنّ هذا الرجل هو مدير الأمن.. غبي.

ازدرد حمدان ريقه بشيء من القلق، أما سارية فاكتفت بأن تحدّج والدها بنظرة احتجاج على ما قذف زوجها من جواب غير لائق وبذيء إلى حدٍّ ما.. وبحضرتها، فأي امرأة بالعالم ترفض أن يُسبّ زوجها من قِبلِ أحد مهما كان.

جمع أنفاسه ثم تظاهر بالهدوء قائلًا:

ـ أكسب مدير أمن فاسقًا؟ «هنا تطلع إلى ابنته وكأنه يريد أن يقول شيئًا آخر لحمدان فكتمه خوفًا أو احترامًا لمشاعر ابنته «وهل المدير بحاجة إلى حرز.. إنه سكّير ولا يعبد إلا فروج النساء والكأس».

لم تكن إهانة السيد من قبل الضابط له وأمام الناس بالشيء الهين، عندما أخذوه من بيته كالمذنب إلى مقر مديرية الأمن، وكان فضوله يدفعه لكي يعرف فيما لو كان وراء هذه القصة «جودت بيك».. فمحتمل أنه أمر أحد ضباطه بتنفيذ المهمة بدلًا من أن ينفذّها بنفسه.

بعدما صبت الشاي اقتربت منه كعادتها بهدوء بعدما كان والدها قد عاد إلى سُبات التفكير كعادته.. متجاهلًا كل من حوله، متربعًا على الأريكة كالديك، مدّت يدها أمام وجهه بالشاي الذي أصبح بمستوى واحد من عينيه،

وكأنــما تفعل ذلك عمدًا لكي تجعله يكف عن التفكير، ويا ليتها تعرف بماذا يفكر.. عاد إلى عالمــه وتطلع إلى عينيها، قبّلهــا في منتصف جبينها وتناول الكأس وشكرها بحنان..كاد أن يأكلها في داخله، ثمّ عادت إلى مجلسها بتأنٍّ ودلال مشرقة الوجه بابتسامة رضا، وأخذت مجلسها بجانب حمدان.

دار الحديث بشكل طبيعي حتى مالت شمس الضحى، ثم مالت أكثر في سكون. وأتى المساء وتوغل، واستتب الليل، والناس في بيوتهم واجمون من الأحداث التي جرت قريبًا.. وبقيــت القرية صامتة يداخلها خوف من الآتي وخوف من أن يفقدوا رموزهم الدينية مع الأيام التي لا ترحم.

صالة الجلوس الآن فرغت إلا من الســيد.. وكأنه بانتظار وَحْي..ولكن وحيٌ من نوع آخر..

أو ينتظــر قادمًا مجهولًا.. من مكان مجهول، من بين ظلام الليل الدامس، كان واقفًا أمام الشباك الذي يطل على باحة داره الخارجية، يتأمل بفضول في الخلاء.. بالتحديد في الظلام الذي يلف السماء.

رأى وميضًا.. سرعان ما تحول إلى شــبح يتراقص بين ستر الليل.. يستطيع أن يميّز الظل من حَمَارِهِ، الذي يسبــح في الفــراغ... في ظلام الليل حيثُ يتراقــص تحت بقعة باهتة عــلى الأرض، فأخذ يتمايــل وكأنه في رقصه كلهيب يشــتعل .. يكاد يكــون الآن أكثر وضوحًا وهــو يقترب أكثر وأكثر.. من السيد.

همس الصوت:

ـ جئتك لأمر هام.

رفع السيد حاجبه بفضول وتساءل بعينيه.

ـ زجاجة في قارورة زرقاء، تحوي شرابًا ينتشي شـــاربه شـــهوة خاصة لن ينساها.. إنها لسارية تشرب منه ولكنها ستنسى مع من جنت الإثم.

ـ وزوجها؟

ـ يريد قرينًا، فابعثه إلى قبر سندلك عليه الآن، اقتربت نهايته فلا تقلق.

ثم هب فحيح خفيف من الهواء وكأن القرين يعلن عن اقتراب أمر هام.. وقد حان وقت إعلانه على السيّد الآن:

ـ ما أن تطأ قدماك حجرتك تجده في قارورة صغيرة لازوردية على الخوان، اقترب موعد ترملها وموعد حبلها.

ابتســـم السيد بخبث.. تحسس بضاعته من خارج السروال يتخيل سارية عارية، نائمة بين أحضانه، اقترب وقت الخبث الذي طالما كان يحلم بها.

ارتعش بلذة يكاد يقذف حتى صرخ خافتًا.

ـ هرررررر..

أزكى صرخته المرتعشة بخبطة قدم، على الأرض، والقرين يراقب بهدوء.

ـ أُخرج لأقودك إلى القبر، موضع دفن البيضة، الوقت الآن ملائم جدًّا.

–29–

اهتزازات الفانوس وسـط شواهد القبور بدأت تبعث الحياة في الضلال النائمة، فقامت ورصدت شـبحين يتسللان إلى المقبرة، السيد وقرينه، لا أحـد يرى القرين إلا صاحبه، لم يوقفهما كلب أسـود يزمجر أو قطة تموء حتى وصلا لفناء متواضع يكثر حوله الأشواك، همس الصوت:

ـ قبر أنتن رجل في التاريخ، زنى حتى بأمه عندما كان كهلاً في الأربعين، مات وهو في الثمانين بعدما بلغ ما بلغه من عظمة الغنى.

مدّ السيد يده في غياهب الجلباب ليخرج مسمارًا ليحفر على حجر القبر مجسم نجمة سداسية.. كعلامة استدلال يهتدي به حمدان.

همس الصوت :

ـ مـا أن يتم حمدان دفن البيضة هنا، سـتبعثه لأمر مهـم إلى مكان بعيد ليعود بعـد أن يتم أربعين يومًا.. ليتخصّب البيضة.. وسـتجعله يتأخر على قرينه.. وما أن يتأخر على موعد ولادة قرينه سـينجز الأخير واجبه ويقتله.. وستكون أنت بعيدًا عن كل الشبهات، ستتخلص من شخص قبل أن يتخلص منك.

سكت برهة، كان السيد يستمع باهتمام شديد لتعليمات القرين:

ـ ستضاجع فتاتك الجميلة عندما تأمن ذلك.. وفي اليوم التالي ستكون قد نسيت من ضاجعت بفعل السائل، ولكنها لن تنسى اللّذة طالما هي حيّة تُرزق وستتمنى المزيد..إنها لذة الشياطين سنقذفها عليها كلما احتجنا لذلك.

سادت مرة أخرى لحظات من الصمت.. ولكن الكلام يمتد، وكانت الشهوة تتقد في داخل السيد كحيوان حبيس، وكانت الأخيلة تتوالى في رأسه، يرجّح ظنًّا، ويعود يرجّح آخر، ولا طائل من إيقاف ما سيقع، كالنار الموقدة تستعر وتضطرم، ومن ثمّ تلهب العيون وتخنق بدخانها الصدور.

–30–

عندما أذن الله للصبح الطيّب بأن يطلع، كانت سارية تعد فطور الصباح قبل البدء باستقبال الزوار، الذين يتوافدون من مختلف أرجاء المعمورة من مناطق الجنوب العراقي، لكي يحصلوا على حرز الرزق أو المحبة أو الزواج.. يصنعها السيد لهم بابتسامة يجتهد في ضبطها والتحكم بها، فتغالبه وتسري في ضوء عينيه وانفراجة أساريره.

******

وتجـلّى النهار، وأشرقت الشمس.. كان حمدان يقف خلف زوجته الرائعة الجمال، يتأملها وكأنه يراها لأول مرة، يمسح مؤخرتها بعينيه المحمومتين، انتبهت صدفة لذلك، فلم تعهد حمدان بهذه الطبيعة من قبل، تساءلت واحتار حمدان في الإجابة أيضًا، فأخبرها لربما كان سحرًا من عمل والدها ألقى بينهما هذه الغريزة المفاجئة.. ضحكا لهذه الفكرة السخيفة وتمنيا لو كان هذا بالفعل ما حصل.

حدّجته بنظرة من طرفي مقلتيها، مصمصت شفتيها ثم جدلت خصلة حول أصبعها بشهوة وهمست بدلال ذائب:

ـ ألن تعقل.. ماذا دهاك اليوم؟

ـ وهل يعقِل المجنون، والجنون في أحشائي قد استقر منذ رأيتك يا سارية، لن أشبع منك أبدًا حتى أموت و..

أسكتته واضعة أصبعها على شفتيه قائلة مقاطعة له بحنو:

ـ ستبقى لي، ولن تموت أبدًا، سأجعل والدي يحفظك لي وسنُخلّد معًا.. سوف ترى فِعل الشياطين.. أقوى من كل شيء آخر.

ـ لقد أمرني بالذهاب إلى البصرة لإنجاز عمل له وسأتأخر.

ـ أعرف، آه وألف آه لو فكرت بالخيانة، ولو تضاجع إحداهن، سأقلع لك الخصيتين.

ارتعش بدن حمدان وطرد هذه الفكرة الدامية من مخيلته ولزم الصمت حائرًا، لا يدري بما يجيب.

مدّت بدورها يدها لتهدئ من روعه، مداعبة ذكره.. فارتعش جفنا الرجل ثم استسلم لمداعبتها حتى أتاهما زعيق السيد من الخارج ينادي بالإسراع بالفطور لضيق الوقت.

انتفضا من الصوت المزعج.. وولى حمدان بسرعة البرق إلى الخارج تفاديًا للشتيمة، فعادت سارية لتركز في صنع الفطور الصباحي.

–31–

عندما كانت سارية منشـــغلة بإعداد الفطور، انتهز حمدان الفرصة وأدخل معـــه بيت الخلاء بيضة كان قد أخفاها في جيب الجلباب الواســـع.. لكي يســـتمني داخل تجويف الإبـــرة ويحقنها بالبيضة.. وخـــز قشرة البيضة بحذر.. ليخترقها بتأنٍّ.. لكي لا يكسر البيضة وتفسد العملية.

ثم أفرغ كل شيء بنجاح.. ضاغطًا على أعصابه لكي تتم العملية بلا فشـــل، أفرغ حتى آخر قطرة من المني في جوف البيضة، استلّ الإبرة من جوف البيضة ببطء.. وصرّ كل شيء في كيس من القماش صغير.. ودسّها في جيب جلبابه.. ولكنه ظل محافظًا على وضع يده داخل الجيب كي لا تنكسر أو يفسد محتوى البيضة.. خرج مسرعًا عبر الســـلالم مستغلًّا انشغال سارية بإعداد الفطور.. ثم أخفى كل شيء داخل بقجة السفر الموضوعة على الخوان.

نزل إلى الســـيد، يواظب على عدم إثارة الريبـــة في نفس زوجته الذكية.. فتحدّث هامسًا مع السيد أن كل شيء على ما يرام.

ـ القبر الذي وصفته لك.. العلامة السداسية على الحجر الموازي لرأسه، «ثم مؤكدًا» العلامة يا حمدان لا تخطئ القبر، مصير العمل مرتبط باختيار مدى دناءة صاحب القبر.

ـ لقد حفظت التعاويذ التي سـألقنها على البيضة أثناء دفنها فلا تقلق يا عمي.. في اليوم الحادي والأربعين سأكون هناك كما قلت لي.

ـ تأكد أنك سـتدفنه بعـد منتصف الليل.. تخرج مـن هنا لتقضي بعض الأمور ولا تعد إلى البيت بل اتجه إلى دار السـائق.. فهو سـينتظرك بعد منتصف الليل ليأخذك إلى البصرة.

هنا دخلت سـارية بصينية الإفطار تبتسـم، وجدتهما يتهامسان على غير عادتهما، شكّت في الأمر وسألتهما على الفور:

ـ اليوم لستما على ما يرام أعتقد أن سرًّا عظيمًا تخفيان عني.

قهقه السيد، فهو يعرف جيدًا مدى ذكائها، ولذلك حاول تبرير ذلك بسرعة قائلًا:

ـ زوجك يسألني عن نوع هدية مناسبة من المفروض جلبها لك من البصرة.

ـ نعم.. نعم، السيد يشاركني الفكرة لا غير.. وها هي المفاجئة قد فسدت حبيبتي.

تطلع السيد إليه بحنق ولم يُعقب.

وضعت الصينية بأريحية ووجه مبتسـم ثم بدأت تصب الشاي أولًا قبل أن تبدأ بتوزيع الأرغفة الحارّة، التمّ الثلاثة حول على مائدة الفطور البسيطة على الأرض، ثم قال السيد موصِّيًا حمدان:

ـ حمدان.. إن رأيت أبو جعفر أخبره أنني مستعجل جدًّا في تجهيز المواد، إنه عطّار جيد وبارع في اختيار المواد الجيدة ولهذا لا أسـتغني عنه.. لطالما كان يلبي حاجاتي على مدار سنين طوال.

* * * * *

كان حمدان دائمًا يَحذَر من غضب السيد، يعلم أن غضبه موارب، يحمل له الامتنان لتزويجه ابنته، ولكنه لا يستطيع أن يعيش العمر كله بلا قوة ولا سلطة كما السيد، فهو أيضًا من نسل السادة ـ أي حفيد آل البيت ـ على حد تفكيرهم، والسيّد مُقدّس في مذهبهم.. ولا كلام يعلو على كلمته..

أمام حمدان الآن القفز إلى مصاف الغنى، فهو يعلم أن السيد يستغل شهوة حمدان في نيل القوة، وها هو الآن يقدّم له الإغراءات.

سوق الدجل والسادة والمعممين هي المطحنة، التي اختاروها لسحق عظام الناس، فهم يوكّلون أمثال حمدان لتمرير الطُّعم لجوف الناس، بصبر وتؤدة.

حمدان وأمثاله كالأفعى التي مررت إبليس للجنة، كالسيد يدخل في حياة الناس الآن عن طريق ممهدين لهم، هنالك أمثاله من العشرات في العراق ومناطق أخرى.. وربما نستطيع القول المناطق التي ابتلاها الله بشر أعمالهم ويظنون أنهم يحسنون صُنعًا.. سلّط عليهم دَجلة.. وسفلة، والسّيد كأنه تاجر يخشى من غائلة السوق الآدمية التي يتعامل معها، عليه بتوخي الحذر.. ولكن حمدان.. كان كالعادة صفر اليدين في كلٍّ.. هذه أحلام السيد باتت تتسع لبلع البلد كله.. والسيد يؤمن بأنّ المال يستوجب الركوع ومن لا يركع لا يحصد إلا اللكمات.

غادر حمدان مساءً إلى البصرة.. ولكنه لم يقصدها فعليًّا، فكما اتفق مع السيد فالسفر المبكر فقط هو لتمويه سارية لا أكثر، انتظر في بيت صديق

وعندمـــا حلّ الظلام انطلق إلى المقبرة، وصـــل إلى القبر وتأكد بعدما رأى وتحسس بأصابعه نحت النجمة السداسية على الحجر.. بأنه القبر المقصود.. أخرج البيضة برفق شديد من البقجة ودفنها بحذر بجانب قبر الميت، خرج بسرعة من المقبرة متجهًا إلى بيت السائق الذي سيقلّهُ إلى البصرة.

وهناك:

تغلغلا في جوف شوارعها عميقًا مخترقين أحياء نبتت على خاصرتي المدينة حديثًا، حيث يزداد الاختناق، وتعيث الرطوبة فسادًا بالأجساد.

كان يفكر بالبيضة التي ستحدد مصيره، فعليه ألّا يطيل الغياب.. أربعون يومًا وسيتغير كلّ شيء.. كلّ شيء.

فهناك حياة، مستقذرة، تجد نفســـك مغمورًا في دنسها، حتى لو نازعتك النفس في التخلص من قذارتها..

ستبقى راسبًا بين لزبها ونتنها.

–32–

غياب حمدان لم يؤثر سلبًا على سارية رغم الأيام القصيرة لسفرهِ، بل صارت نشيطة أكثر في أمور البيت.. عندما سألها أبوها عن سرّ هذا النشاط غير الطبيعي.. أجابته لو عاد حمدان من سفره فالأفضل أن يلقاها بوجهٍ مستبشر لا حزين.. يجب أن يلقاها وهي أكثر تألقًا ونضارة.. بل لم تترك للحزن والغم والهم فرصة لتأكلها.. ولكي لا تزيغ عيناه ويتأكد في نفس الوقت من أنه قد تزوج من امراة تختلف عن سائر النساءْ، أمراة قوية.. وجميلة.

لم يكن والدها يُعلّق.. بل كان يُخطط لها.

صارت رائقة البال، لا تضيق بمطالب الزوار عندما كانوا يطلبون العجب منها من طلبات كثيرة.. في أثناء فترة انتظارهم للدخول على السيد في ديوانه الذي توسع كثيرًا.. يسمعون ضحكاتها وهي تكركر كالماء العذب المندفع من الجبل بعد ذوبان الثلج.. بجسمها البض، تنتقل من مكان لآخر.. بل صارت تتحمم كل يوم مرتين، تكحّل عينيها، وتدهن شعرها الجميل اللامع بزيت اللوز، فأصبحت كزهرة أزهرت في الربيع، وأينعت وتكاتفت أوراقها بمختلف ألوانها، ورديـة وقرمزية وصفراء وبيضاء،

كانت تشـــاغل الناس ببهائها، تشبك عابر الســـبيل فيرفع عينيه، ويراها تجلس كحورية خلف الشـــباك، كانت تتطلع هي أيضًا ولكن على مفرق الطريق عســـى حمدان يعود إليها مبكرًا. تعـــرف أن الوقت ما زال بعيدًا لعودته، ولكنها ترى بعين الخيال عودة الغائب الحبيب.. وما تزال تنتظر.

* * * * *

كانـــت أخيلة غريبـــة تزورها وهي نائمة، ظلال تتراقص على جســـدها المسجّى في الفراش، وهي كاشفة عن ساقيها الرائعتين كلؤلؤتين تلمعان وسط العتمة.. هبّت من نومها فجأة ذات ليلة، فتحت عينيها الجميلتين، اعتدلت جالســـة يأكلها شيء من الخوف وكثيرٌ من القلق الذي لا يرحم جمالها، لم يبادرها بزيارة الظلال لها، ظلّت متربعة على فراشـــها.. تتحامل على نفســـها لتكســـب قوة وشـــجاعة على ما يحصل لها الآن.. فتحبس أنفاسها.. لترهف السمع.. همست:

ـ خيال.. فقط.

تحدّق في الظلام لا ترى شيئًا فتتأكد أنه خيال.. فقط.

ثم قامت وتحسســـت طريقها إلى القنديل وأسرجته.. لتتطلع إلى غرفتها التـــي باتت كالمهجـــورة.. إلا من أثاثهـــا. اندفعت غريزيًّا إلى الشـــباك تستجمع شتات نفسها التي أرهقها القلق، وضعت القنديل على مصطبة خشبية بجانبها، غفت ثم أفاقت مرتين، حتى سقط ذقنها على صدرها.. وظلّت نائمة حتى مطلع الفجر.

–33–

وصل حمدان إلى البصرة وتوجّه مع السـائق إلى أحد المقاهي التي تعمل ليلًا أيضًا، وجلسـا يحتسيان الشاي، استغل السائق هدوء الليل فاقترب من حمدان وهمس:

ـ هنا توجد حسناوات تدفع لها وتبيت عندها، أحسن من الفنادق.. وما تدفعه هناك تدفعه هنا.

تطلّع حمدان بفضول ثم قال له:

ـ ألديك معارف؟

ـ طبعًا وهل أنطق من فراغ.

ـ إذن نذهب بعد الشاي، التغيير واجب.

صعدا السيارة وانطلقا إلى جهة خمسة أميال، وتوقفت السيارة بهدوء في حي مظلم.. أمام دار متهالكة البنيان.. في حي شعبي.. أطفأ محرّك السيارة وترجلا بصمت.

أمسك بالسـقاطة وطرق الباب بهدوء.. وكان السائق يسلك وكأنه على معرفة سابقة مع أهل الدار.. خرج رجل له جسد نحيل.. عيناه عسليتان

تلتمعـــان كبريق ماكر، بدا كفأر مكتوم اللون..ســـلّما عليه ودخلا الدار بأدب وهدوء.

تبادلوا الحديث في صالة الجلوس.. البيت كان عكس ما كان يعكسه من الخارج.. نظيف ومرتب وكأنه تم بناؤه حديثًا والأثاث نظيف وحديث.. اتفقوا على سعر مناســـب لقضاء فترة الإقامة معهم، ثم قام حمدان لأخذ حمام ليريح جسده المنهك ويزيل عنه غبار السفر.

كان يستحم في جو من الراحة.. حتى اقتحمت عليه الحمام امرأة.. كانت لها قسمات منحوتة، واضحة، وجه أسمر يميل إلى استدارة وجبين واسع، عيناها سوداوان تميزهما سحبة في الجانبين ملحوظة، أنفها جميل وكبير.. وشفتاها ممتلئتان، وشعر أملس طويل يلتمع سواده في ضوء القنديل.

سألها حمدان:

ـ ما اسمك يا حلوة؟

ـ مريومة.

ـ مريومة.. الجميلة.. أنت غاية في الجمال.

ـ هل عندك شك؟

ـ لا بالتأكيد.. وإلا لما سمحت لك باقتحام الحمام.

قهقهت بمكر ثم قالت ساخرة:

ـ آه، مفهوم.. أراك كذلك.

اقتربت منه ثم أخذت منه الكيس وصبّنته بعد أن صبت عليه الماء، أجلسته وبدأت بتكييسه، اليد اليمنى، ثم الذراع اليمنى.. وتحت الإبط ثم انتقلت بالتدريج إلى الأجزاء الباقية من الجسم.. تعرّق بدنها ثم تعرّت، كانت امرأة بالغة الحُسن، ميادة القد، وثدياها كأحقاق العاج، خصيبة البدن، في ثدييها امتلاء.. عريضة الأكتاف والأرداف.

عندما انتهت من تكييسه صبت عليه الماء..كانت تداعب ذكر حمدان فيستشيط حرارة وشهوة.. خرجا من الحمام وهي تسير متهادية يرتج جسدها الخصيب الممتلئ ارتجاجًا..لم يكن في صالة الجلوس أحد.. وكأن السائق وزوجها قد ذابا كذوبان السُّكّر في الماء.. تساءل حمدان.. فردّت عليه بأن زوجها والسائق في غرفة النوم الثانية ثم زادت لتقتل فضول حمدان:

ـ إنهما مثليان.

سحبها نحوه وقبّلها قبلة سريعة حيية طبعها على خدها الأسيل.. وصلا غرفة النوم.. حتى سمعا وطء السرير وهو يرتج في الغرفة الثانية والآهات تصدح فيها، ابتسما ودخلا.

أعطته المرأة نفسها.. كانت نفسه تضطرم وروحه تشهق، وقد اجتمعا عليها نصل السكين والرجفة الحيية..

ينهلان من كوثر الفردوس وهي تشتعل محرّقة بالنار وكأنه أول ذكر يضاجعها في حياتها.

داعبته وداعبهـــا.. بجرأة غير طبيعيـــة من الاثنين.. أثبـــت فيها حمدان رجولتـــه، وأثبتت هـــي الأخرى أنوثتهـــا التي لا تُقهر..كان جســـدها فائرًا وخصيبًا.. شـــهق مأخوذًا.. بدأ يمرر يده على جسدها حتى أسفل الساقين.. ألصق جسده بها ومرّ بشفتيه يقبلها ويقلبها ويدغدغها.

تموء كالقطة البرية، فيزداد الثور الهائج شبقًا على شبق.. ثم أمالها وغمرها بجسده العاري الضخم، حتى طاشت فيه نار الفعل التي تعلو وتلتهب.

أول ليلة لم ينســـها حمدان، هكذا قـــضى الأربعين يومًـــا في بيتهم.. أكلٌ وشربٌ وسهرٌ وجِماع.

في حـــين كان أبو جعفر العطّار قد طلب من حمدان أن يتريث حتى تصل المواد المطلوبة من النجف.. وقد تتأخر أسابيع بسبب سوء النقل. اغتبط حمـــدان لذلك.. لكي يكون لبقائه الطويل مبرر كافٍ يبرره لزوجته. وإذا تطلب الأمر أكثر فسيذهب إلى مكان البيضة ويتفقدها خلسة.. ومن ثم يعود أدراجه إلى البصرة وينتظر.

إذن كل شيء تحت السيطرة.

–34–

الأسبوع الأول لغياب حمدان:

اضطرت في الآخر أن تبُثّ شــكواها لوالدها.. أضغاث أحلام ربّما.. ولكنه يجــب أن يعلم بما يجري لها.. لكن والدهــا أكّد لها إنها يجب أن تشرب شرابًا يملكهُ يســاعدها على طرد الكوابيس.. وعليها أن تسمع الكلام.. وسيختفي القلق والأرق.

رحّبت ســارية بالفكرة.. وألحــت أن يعطيها الــشراب.. لكن والدها أخبرها بعــد المغرب هو أفضل وقــت تتجرع فيه الجرعــة لكي يعمل مفعوله بانتظام.

اشــتكت له بأنه أحيانًا يثقل عليها الصحو في الظلام، فتشــعل شمعة وتروح تتابع شــعلتها الراجفة والظلام على الســقف والجدران.. كان الســيد جالسًــا حينها في الصالة بهدوء.. إنه يوم راحته لا يستقبل فيه الزيارات.. مستأنسًــا بوجودها وبوجهها الاسبرانزو الوديع المستغرق في الشرح.

فحضورها الفطن وضحكتها الرقراقة تقتل كل تعب ومشـــكلة تواجه الســـيد في أوقاته أحيانًا.. ولكنه للأسف يجب أن ينفذ أمر أسياده، فهذا شرطهم الذي يتمســـكون بـــه.. لكي يحصل على ما يحصـــل عليه اليوم مـــن قوة وهيبة. يعلم جيدًا أنه يُدجّل على الخلق باســـم الدين وآل بيت النبي، يستغل ولاء الناس الطيبين لصالح أعمال لا تمت إلى الإسلام ولا الأديان بشيء.

عندما حلّ المساء.. وانتهيا من وجبة العشـــاء.. أعطاها السيد القارورة الصغيرة، وهو يراقب بعينين تقدحان الشهوة وخبثًا عاليين.. ظلّ يراقبها بشغف حتى شربته.

ثـــم وصّاها أن تذهب إلى الفراش على الفـــور قبل أن يكبس عليها النوم الثقيل.. فالشراب قوي المفعول.

لاحظ عليها بأن صدرها وظهرها ومنابت شـــعرها قد ابتلّت، يكاد يســـمع دقات قلبها، قالت وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها التقاطًا:

ـ نعست يا والدي.

أخذهـــا من يدها وســـحبها برفق إلى الأعلى وهي تتمايـــل وتترنّح تكاد تفقد وعيها وتغرق في حلم سيدرّ عليها عواقب غير متوقعة.

–35–

كان الجو لطيفًا والليل ساجيًا والظلمة شاملة إلا أنّها كثيفة تحت عرش الطبيعة، رقيقة في نصف السطح الآخر المسقوف بقبّة السماء المرصّعة بلآلئ النجوم.

وفيما هو كان يتأمل الخارج من الشباك وكأنه ينتظر إذنًا.. استدار وتوجه نحوها وهي ممدّدة على السرير.. يسير الهوينى.. تسلل إلى أذنيه حفيف.. أو لعلّه همس.. بل أنفاس تتردد بين لحظة وأخرى فحملق في الظلام سائلًا:

ـ أوَليست لي؟

ـ بلى هي لك.. والقادم لنا.. تذّكر.

حرّك رأسه بالقبول.. واندفع بهدوء نحوها، اضطرب جسمه برغبة عارمة، صح له سوابق غير منكورة، ليس حتمًا أن تقع بغيته على طراز سارية.. ميزة حُسن واحدة تغني عن غيرها.. وفي خطوات وئيدة محملقًا صوبها، جلس بقربها، مسّ بيده أحد ثدييها، بل تركهُ يصافح الثدي الآخر، ثم مدّ يده

إلى دائرة الصـــدر الناهد، صغيرة منتفخة، وحـــرّك ذراعه حركة ناطقة بالتردد، غير مصدقٍ أن ما بين يديه لحـــم مختلف.. غواية من نوع آخر. فتوقف متسائلًا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرًا متوهجًا.

ـ أهذه سارية ابنتي.. كل هذا الحُسن فيها؟ الله يلعنك يا حمدان الثور.

لمس أهداب شعرها بأنامله وسوّاها.. وقد لاح إبطها من فرجة الفستان، أملس ناصعًا رغم الظلام النســـبي.. يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين، حتى سرت في بدنه سكرة الهياج، وانقضّ عليها كما ينقض النمر على الغزال.

–36–

لم يكن سفر حمدان إلى البصرة سوى خطّة سوداء دبّرها السيد.. اتفق فيها مع العطّار والسائق.. وذريعة تأخير المواد كانت اتفاقًا معقودًا بين السيد سامي وأبو جعفر. فالوقت مطلوب لتنفيذ مأرب السيد على رواق وهدوء البال، وأربعون يومًا كافية لإكمال كل شيء.

لا بد لحمدان من نهاية تُسقطه، نهاية لا يرجع منها.. وكل ما صنعه السيد لا يعود ذا قيمة حين ينافسك شخصٌ ما في جاهك، أليس كافيًا أنه تزوج من سارية؟ ماذا يريد النذل بعد؟

ملل إتيان الفواحش خرج من أنفاس السيد، ولكنه كان بحاجة لسلوى جديدة لقلبه.. اقترف كل المتع، وكلّما عبر إحداها، وجد أن الحياة تضيق به.

يقعد في ديوان بيته فتأتيه الحسناوات بعقول فارغة ويطلبن أن يحبلن.. ولا مانع لو كان الفاعل هو السيد نفسه بل بالعكس سيكون المولود مُباركًا فيه حيث ستنفحه دعوات الملائكة بالعمر المديد والسعيد.

النساء يعشــقن التحديق، تعشق إحداهن أن تُســمّر عينيك بها لترتوي أنوثتها.. والسيد يستطيع أن يزيدها زهوًا، ونشوة.

المال، المتعة، الجاه، آخر المُبهجات التي وصل إليها، صاحب القامة الراسبة.

المــال يجفف الأخلاق، فلا أحــد يهتم الآن بالمبــادئ، الناس تعبت من الحياة، والنســاء حائرات.. يشكين من برود أزواجهن.. ومن الوحدة.. فلِمَ لا أكون الأب الروحي لهن، بل للقرية كلها؟.

قالها محدّثًا نفسه.

لمح كلبًا أسود.. قذفه في سرّه بالسب متموجًا بسخرية لاذعة لحاله:

ـ أتراكَ جني أم كلب حقيقي؟

في هذا الوقت من الظهيرة تســيح الحيوانات كما لو كانت أصباغًا ســيئة الإعداد.. تشــتهي قطعة لحم أو جيفة ملقاة عــلى الطريق لتكون وليمة مناسبة لبطونها.

لا يحب السيد أن يرى حيوانات متسكعة أمام بيته، تتحرك موجة غضبه المتجعد ليُرســل شــخصًا من أهل بيته ليبعدها عن أنظاره بالضرب أو التلويــح بحجارة وقذفها عليها بغضب. ولكن الكلاب الأكثر بذاءة تمر كل يوم من أمام بيته وتعوي عواءً مســعورًا ليستشيط السيد غضبًا ويبدأ بالكفر واللعن مِنَ الذي أوجد هذه المخلوفات بلا فائدة.

–37–

الليلة عودة حمدان...

حضر السائق في الموعد المتفق عليه.. وكان حمدان مبتهجًا على قضائه الوقت مع السيدة، كيف ينساها وهي تمشي إلى اتجاه السرير بخطى وئيدة فيهتز ردفاها ويستقيم جذعها كالقضيب ثم تنام عليه وتغطيه بجسد كله أنوثة.

تمتمت بدلال وهي تودّعه:

ـ لا تنسَني.

ـ أنساكِ.. كيف أنسى من أنسَتْني نفسي.

ـ أنسيتُكَ حتى زوجتك؟ «قالت بمكر».

ـ الله يلعنها. «قال باستياء».

كركرت ثم قبّلته قبلة طويلة من شفتيه.. مصمصتهما وكأنّها أعلنت عن حرب لا مردّ منها ثم تركته ودفعته ضاحكة نحو الباب.

سافر حمدان مع السائق إلى الهارثة، يستذكران بفخر أحداث الأربعين يومًا التي مضت بسلام.. ثم قال حمدان بخبث:

ـ لم أعرف بأنك تحب مضاجعة الرجال.

لم يخجل السائق بل بالعكس اندفع ليحكي حكايته مع زوج السيدة صاحبة البيت قائلًا:

ـ أنقذته من ناس كانوا يضربونه بقسوة أمام داره، فشكرني وقدّمني لزوجته، وفي الليل ضاجعت الاثنين معًا وما زلت.. فكما ترى أتصرف هناك وكأنه بيتي.

ضرب حمدان كفًّا بكفّ قائلًا بوجهٍ يحملُ الدهشة والابتسامة معًا:

ـ أنت داهية يا حاج .

ظلا يستعيدان ويستذكران لبعضهما أحداث الأربعين يومًا حتى وصلا الهارثة التي كان يُغلّفها سكون الليل من دون أن يشعرا بالوقت..

ثمّ فجأة قطع السائق حديث حمدان قائلًا:

ـ عفوًا للمقاطعة.. أين تحب أن تنزل؟

ـ أنزلني قريبًا من المقبرة لأنني جلبتُ أمانة عليَّ بتسليمها لشخص ما أولًا.. ومن ثمّ أتجه إلى البيت.

لم يبدِ السـائق أي اندهاش من هذا الطلب بـل أوصل حمدان إلى المكان الذي طلبهُ بكل سرور.. نزل حمدان وانتظر السـائق أن يبتعد ثم التفت يمنة ويسرة واندفع ببقجته مُندّسًـا بين المقابر. دخلها دون ارتباك، فرك كفّيه قائلًا:

ـ وصلتُ إلى ما أبغي إليه، دقائق تفصلني عن السعادة.

مشى..

ثم تقدّم واثق الخطى بمشيته..

تقدّمَ بين الأمـوات.. مُركّزًا عينيه إلى الأمـام، في نقطة لا يراها غيره.. عيناه تلمعانِ من شـدة القسوة، يدوس على قبرٍ صغير غائر بلا رحمة ولا يلتفت.. حتى أبطأ من مشيته..

وصل إلى القبر..

القبر!

و.....؟

تمسمرت قدماه في الأرض، كادت عيناه أن تخرجا من محجريهما ولم تمضِ ثوانٍ على ارتباكه..!

حتى حدث كل شيء في أقل من وهلة..

الجسد بدأ يهتز مثل شخشـيخة بيد طفل سادي.. يهزُّه بعنف، وينتفض كأن خـط إمداد كهرباء قد احتضنه.. حتى تفجر شريان صغير في عينيه، صرخة مكتومة انفجرت من نفسـه العفنة، وزبد سال من شدقيه قبل أن يميل بهيكله ويجثم على الأرض.. ويتقيأ نهرًا أصفر ممزوجًا بالدماء.

فانتفخت الأوردة في عنقه ووجهـه وكادت أن تنفجر.. وكأنه تعرض لهجوم عاصر من قبـل ثعبان الأناكونـدا.. كالثور بدأ يقاوم شـيئًا غير مرئي بلا جدوى.. حتى سـكت بغتة، همد وارتخى وكأنّ روحه تنسـل منه غصبًا وبلا إذن، كالإرث بات يندثر..

وجههُ يشي بزوال المعاني، حتى همس بنفسٍ واهن متهدّج تملؤه حشرجة:

ـ أأأأأأأأأأأأأأأأأأأآه.......

سوادٌ بلا قمر ولا نجوم ولا بشر...

سكون دام طويلًا...

حتى انبعث صـوتٌ مفاجئ وكأنه كان يسـتريح من التسـلية ثم عاد ليواصل جنونه مع ضحيته...

لم يكن نباحًا لكلب أسود...

ولا زئيرًا لأسد فتكهُ الجوع...

ولا مواء قطة سوداء...

بل كان صوت حسيس نار بلا وهج، التفّ بغضب عارم حول جسده المُلقى على الأرض كالثعبان يلتف عليه.. وكأنه يريد أن يترك خاتمة مناسبة على مشهد الرُّعب.

ثم اختفى كل شيء في لحظة.. تاركًا حمدان جثة هامدة..

مخلِّفًا وجهًا يابسًا.. وحُفرًا على خديه بخطوط غائرة وكبيرة.. وانخسفت عيناه في محجريهما كجزيرتين في محيط...

لفّ المكان هدوء... هدوء كبير يغلّفهُ الخوف..

أمّا الجسد الفارغ من الروح فبقي مُسجًّى على الأرض حتى طلوع الشمس.

–38–

بعد شهور من موت حمدان...

وبينما كان الليل يستبشر ببدره، وتدلّى كقنديل يتوهّج مخففًا وطأة الظلمة الرابضة في القرية...

كانت ولادتها عسرة، وكادت أن تشطُر جسد سارية وتهلكهُ إلى الأبد، كان الجسد كوَترٍ مشدود تحتمل ما لا يحتمله، حتى اندفعت الوليدة وسمعت صراخها الواهن.

فحملتها بين ذراعيها باكية، تأملتها وقبّلتها فأحسّت بمذاقها على شفتيها. وفاض حليبها فألقمت الفم الصغير حلمة ثديها.. فتحرك حشـــاها كأنما تشق تربته نبتة طالعة.

لم يتغير الســـّيد، لا هـــوَ مسرور ولا هو بحزين.. هـــو الوحيد من البشر الذي يعلم مصير الطفلة ومن أي شيء خُلِقتْ.

أمّا بالنسبة للأم فلم يكن ذلك فرحًا الذي ملأها لأن الفرح يضيق. كان شـــيئًا يسري في بدنها، يدخله الرهبة والفرح والوجـــل، تجمعت الحياة

ببدرها العالي وسمائها بالتصاق فمها الصغير بحلمة الثدي والصدر وكأنّهُ نبع أو ديمة سكوب في سماء الله الصافية.

كانت تنمو بسرعة على غير طبيعة الأطفال، ففي شهرها الخامس وعلى غير طبيعة الأطفال.. بدأت تحبو بسرعة وعندما بلغت السنة كانت أسنانها قد اكتملت بدون أن تصيبها الحمى كما تصيب بقية الأطفال.

أثارت هذه المسائل تساؤلات الأم ولكن أباها حذّرها من أن تتفوه بأي كلمة للجيران لئلّا يمسّ الطفلة حسد.. فما يحصل طبيعيٌّ للغاية.

السيّد لا يعلم كم سيطول من الوقت وتختفي الجنيّة الصغيرة.. عليه أن يسأل قرينه، ولكنّه ينسى في كل وقت يكادُ يسأل فيه عن مصيرها.. ولرّبما أنسوه.

كان في كل وقت يجلس بجانبها ويهمس في أذنيها:

ـ أخبريني من سيأخذك.

تتطلّعه بعينيها البريئتين ولا تجيب.. تملؤها براءة الطفولة بابتسامتها المفعمة البشوش. يُجلسها على حجرِه.. يحاول الوصول إلى شيء...

أي شيء..

ولكن الطفلة لا تعي ما يقول.

–39–

البصرة 1931

بدت حميدة وهـي تتمعن أناقتها في المرآة مشرقة.. قبل أن تخرج لاستقبال «جودت بيك» الجالس مع زوجها في الصالة، بدت شديدة الإعجاب بنفسها، توفّرَ لها كل شيء، ولها ابنٌ الآن قد بلغ الخامسة من العُمر، وزوج غنيّ أخرق، و.... وعشيق وسيم.

والأخير بات يتغزل بها جهارًا أمام زوجها الذي أضحى كلعبة لا فائدة منه سوى أنه زوج بالاسم فقط. كانت تنصت باهتمام لما يدور من حديث بين العشيق والزوج، لا حبًّا في نباهة الزوج بل عشقًا في سماع صوت العاشق المحموم.

ارتشف رفعت بيك الشاي بهدوئه المعهود وهم جالسون في الصالة الفخمة بأثاثها وزخارفها الراقية .. قبل أن يسأل جودت بيك:

ـ أما زال الملك مشغولًا بأمور رجال الدين بعد ترحيل الخالصي من العراق؟

ـ المشاكل لا تغادر أراضينا.. حتى من بعد مبايعة الملك على حكم العراق عام 1921 بمعاهدة مع بريطانيا.. وحتى بعد استقلال العراق عام 1930 عن التاج البريطاني وإنهاء حالة الانتداب.. ومعارضة الخالصي للانتداب سببت له مشاكل وخيمة مع الملك.. فضاقت بريطانيا منه ومن دور والده لتنفيه إلى الحجاز.. قبل أن يهرب إلى إيران بعد أن أدّى مناسك الحج.

ـ على ما أعرف بأنّ هذه الاتفاقيـــة كانت بنودها لصالح المملكة المتحدة بخصوص تســـهيلات عديدة لهم.. تخص مرور القـــوات البريطانية إلى أراضينا في أوقـــات العمليات الحربية.. وبنود تخـــص التعاون معهم في مجالات اقتصادية عديدة.

ـ هذه المعاهدة مهمة للإنجليز وخصوصًا بعد ثورة العشرين التي كبّدت بريطانيا خســـائر فادحة على أراضينا.. وبعـــد مؤتمر القاهرة عام 1920 بحضور وينســـتون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني آنذاك أعلن عن تغيير جذري لسياســـتهم في العراق من استعمار مباشر إلى حكومة إدارة وطنيـــة في العراق... والظاهر أن وجهاء العشـــائر في الجنوب ممن قاموا بثورة العشرين لم يرُقْ لهم هذا القرار.

ـ ومع ذلك فمشـــاكلنا لم تنتهِ.. وفي عزّ هذه الصراعات شكا ملكنا عام 1923 للملك عبد العزيز من قبيلتين منتشرتين في العراق والســـعودية مـــن الغارات على طوارقنا في أواخر القيظ، نهبـــوا بِعارًا وخيرات الله..

ونهبوا تابع الملك عبدالعزيز الرباعي أثناء تعرضه لغزوة عبر الحدود من العراق فسلبوا كل ما بحوزته من جِمال ومتاع.. أعان الله مَلِكنا فبدلًا من الوقوف بجانبه لا نُجيد نحن العراقيين سوى الرفض والمعارضة.. يستر الله من القادم.. فنحن على استعداد أن نقتل الملك وكل من يخلفه.. اسألني أنا عن هذا الشعب.

ـ ولا تنسَ الآن شاه إيران أيضًا.. الذي يتربص بالمملكة من خلال تحريك رجال الدّين ودسّهم بين الناس لإثارة مشاكل لم تخطر على بال أحد.

قالها «جودت» بأسى واضح.. خفض عينيه للحظة متفكرًا ثم رفعهما فإذا بهما تعكسان نظرة قلق.. فتلاعب دبيب الحزن بقلبه حتى أدركت حميدة الموقف قبل أن يتحول المجلس الجميل إلى مأتم .. بعدما رأت بأنّ الصمت بدأ يُشحن بالتوتر فأزاحت كابوس الصمت بكلامها:

ـ إن لم تكفّوا عن حديث السياسة فسأترك مجلسكم المتهالك.. السياسة خارج الدار وليس هنا.. يُخْصُون الخالصي... يغتصبونه.. يموت الملك أو يحيا ليست مشكلتي بل مشكلة الفقراء.. نحن خارج هذا الموضوع فأرجو أن تكفّوا عن ذكر السياسة أمامي.. ضقت ذرعًا منكما.

كلامها الجريء أذهل الاثنين.. فحارا بالإجابة واكتفيا بالضحك على طول لسانها وجسارتها.. فرمقها «جودت بيك» بنظرة متّقدة لسعت قلبها على الفور.

«جودت بيك» لا يحلو له الــشراب من قلّة إلا من الموضع المبتل بريقها، ويدللها دائماً سواء بوجود زوجها أو أن يكونا على سرير واحد.. فتركن حميدة إلى إهمال زوجهــا.. وتتمنى زواله كما تتمنى زوال صفيّة. جودت بيك يعشــق راحتها المخضبة بالحنّاء. ويرنو إليها بشوق وافتتان، ويصرّ على احتفاظه بها رغم كل شيء.

يرى جسدها الممشوق وساعدها البض فيزهد في النقاش، وعندما تُقدّم له الشــاي يتطاير إلى أنفه رائحة قرنفلية ودّ لو تغوص شــفتاه في لحمها الطرّي، فيتنهد في سرّه بحرقة.

******

في اليوم الثاني كانت حميدة على موعد مع صفيّة تجلسان في مقهى كلاسيكي فخم على ضفاف شــط العرب.. تحتسيان الشاي.. كان الحديث في بداية الأمر عابــرًا.. تتطرقان لمواضيــع مختلفة وعابرة حتــى تقصّدت حميدة بالتطرق لموضوع شــخصي حول حمل صفية.. الأخيرة أخذها الفضول فهذا الموضوع المهم الذي يشغل بالها طيلة الوقت.

أحست بأنّها كندف الثلج تتطاير بخفّة في الهواء بلا صاحب أو استقرار.. الطفل أهم شيء تفكر به، حتى وإن كان زوجها لا يهتم بها كسابق عهده، ولكن المولود سيغيّر حتماً كل شيء وسيذيب جليد الانعزال بينهما وتعود المودّة لا محال.

قالت حميدة:

ـ الحق عليكِ.. أخبرتك من قبل أن آخذك إلى السيّد سامي وأنت ترفضين دائمًا..أحلف لكِ بالمقدّسات أنّ دواءكِ عنده.

ـ ولكنّي أخاف من هؤلاء الدجلة.

انتفضت حميدة من كلام صديقتها.. فانتفضت معها صفية وجفلت على غرار ردّة فعل صديقتها وكأنّ مسًّا شيطانيًّا أصاب الاثنتين.

سارعت حميدة بالاستغفار على الفور وصاحت بصوت خفيض:

ـ كيف تقولين هذا على حفيد آل البيت هل جننتِ؟

ـ آل البيت؟ وما دخل هذا في ذاك؟

ـ هذا سيّد سامي يداوي المرضى بلا عقاقير ويرزق الناس بلا أي شك.. يشفي الصدور العليلة و....

ضاقت صفيّة من هذه الكلمات ثم قالت بضيق شديد مقاطعة باستنكار:

ـ يشفي ويرزق؟ هل يحيي ويميت أيضًا؟

قالت بسخرية.

كادت حميدة أن تنقض عليها لو كان الأمر يسيرًا.. ولكنّها تحاملت على نفسها لتتحمل عناد تلك العاهرة كما تعتبرها دائمًا لأنها نافستها وشاركتها في عشيقها.

ثمّ أردفت صفيّة:

ـ أوليس هؤلاء السادة كما يدّعون بأنهم من نسل النبي.. فيتزاحمون على القاصرات ويستغلون الأرامل والنساء الجهلة ليتزوجوا منهن كمتعة؟ إنّهم سبب تعاسة البلاد وشقائنا انظري إلى ما يفعلون في المملكة من تخريب، ولاؤهم ليس للعراق بل لجهة أخرى ولا أشك في ذلك أبدًا .. لا دين لهم.

ـ صفيّة أنا جربت هذا السيّد وكانت وصفته ناجحة، حاولي أن ترمي بكل هذه الخرافات وراء ظهرك فقط للحظات وتمعّني عزيزتي في وضعك.. أنت امرأة تحتاجين إلى طفل وهذا الحال لا يتماشى مع ما أنت فيه من علاقة متوترة مع جودت الذي يرفض التعاون معك.. سيهجرك يومًا وبلا شك لأنه لا يربطه بك أي شيء.

ـ نعم ولكن ليس بطريقة عمل حرز أو سحر.

ـ وما هو الحل برأيك؟ لعلمك الحرز يفك المشاكل إلى الأبد.. أعتقد لو أن «جودت» يتركك للأبد عندها ستندمين.. تأخذه منكِ امرأة بارعة في الدهاء.. هل هذا ما تريدينه؟

أرعبت حميدة بكلامها فرائص صفية.. تمتمت..

ولم تجد شيئًا مناسبًا لتقوله.. ربما حميدة على حق.. فهي صاحبة خبرة في الحياة وصديقتها القريبة جدًّا..

بدت ســـاهمة وغامت عيناها وكأنّها ترى كابوسًا وسيأخذ كل شيء منها بلحظة خاطفة.

ـ اعقلي حبيبتي ودعيني أخطط لكِ هذا الأمر فأنا أحبكِ والله.

فكّـــرت بصمت، تركتها حميـــدة لتُفكّر وهما في طريق العـــودة إلى البيت بســـيارة حميدة الفخمة.. نزلت صفية متوترة والحزن يعلو وجهها، لم يكن يومًـــا ذلك الذي ضاقَ بـــه صدرها فاختنقت، بل يومًـــا بعد يوم بل مئة يوم.. تدرّب نفسها على التعلق بقشّة الأمل وطاقة الضوء حتى ولو كان صغيرًا.. كانت دائمًا قوية ماذا حدث؟

فالبنت قبـــل زواجها تعيش في كنف والديْها معززة، مدلّلة..كالشـــجرة وارفة الأغصان، والدها الغنـــي لم يبخل عليها بشيء، فهي كل شيء له، وعندما تقدّم لها الضابط الشـــاب اغتبطت وطارت من فرحتها، أحسّت بأنه الفارس هو حبيبها وكل شيء في سِفر حياتها.. وسيريحها إلى الأبد.

ولكنّ ما حصل بعد الزواج كان العكس تمامًا..أذاقها المُر بعد أن شـــبِعَ منها، وعاشت في حومة تعذيب وبؤس، وحيدة لا صاحب لذلك الجسد الشفاف كالزجاج الأملس.. فقدت إحساســـها بأنوثتها، تركها، كبدن مُجرّح وروحها كالطائر الذبيح تنتفض.

رُبّما حميدة على حق!

–40–

اقترحت ســـارية على أبيهـــا أن يجلب خادمة لتعاونهـــم في أمور البيت، فوكّلها أبوها لإنجاز هذه المهام.. فجلبت معصومة.

امرأة سمراء من نســـل عبيد متوارثين، كانت تعيش في منطقة الحيانية في بيت زوج خالتها، وكانت تخدمهم بكل نشـــاط.. يحبونها وتحبهم.. يتيمة الوالدين، تبنّتها خالتها من الضياع.. هـــي في مقتبل الثلاثينيات، وافرة القدّ، وطويلة، لمعصومة وجه مختلف عن باقي النســـاء بلونها الأســـود، فوجهها منحوت القســـمات جميل ويميزه جبين عال، وبشرة لامعة، ولها أيضًا ميزة أثارت في الســـيد نارًا لم يعرفها من قبل وهي وشـــم قديم على الشفة السفلى.

كانت بارعة في أمور إدارة البيت والطبخ، وبعد فترة قصيرة من خدمتها في بيت الســـيّد نمت الألفة بينها وبين أصحاب الدار. كانت تخدم الزوار بكل نشـــاط.. أُعجب بها السيد كثيرًا وكانت كلّما ذهبت أيام إجازتها إلى بيت خالتها.. أغدقها بالفواكه المجففة والطحين وكل ما تحتاجه الأسرة من مُؤن.

إضافة إلى السائق الذي كان يوصلها على حساب السيد كلما تطلب الأمر لزيارة معصومة أهلها في الحيانية.

كانت معصومة سعيدة في خدمة السيد لدرجة أنها كانت تخاف من أن تحسد نفسها بنفسها على هذه النعمة.. حتى كفّت عن الحديث للمعارف خوفًا من زوال الخير.. حتى حدث شيء تغيّرت فيه الأمور وهاجت النفس المطمئنة ولم تسكن بعدها.. فبقيت الهواجس تجتاحها دائمًا.

في إحدى الليالي شاهدت معصومة السيد يتحدّث إلى شيء غير مرئي.. كان كلما ازداد نعيق البوم ازداد هو غبطةً وإيثارًا لأمر لم تفهمه هي.. جالس في غرفته بجانب الشباك في حركات مبهمة لا تليق بعمره المتقدم.. هل تراه يستمني؟ وماذا يفعل؟ هل يراقب من خصاص الشباك الخلاء المظلم ولماذا؟ مع من يتحدث؟

كان هذا قبل أن يكركر السيّد، مما أثار مخاوفها وتراجعت برعب وهي ترقبه من فرجة الباب..

ـ هل هو مجنون أم يتكلم مع أرواح آل البيت؟ إنه سيد ولا بد من أوقات محددة يجالسهم ولربما هي ستعكّر صفو الخلوة مع ساداتها.. وما رأته قد يكون تخيلات التعب!

تركت المكان وحال استدارتها انتفضت من رؤية الفتاة الصغيرة واقفة منتصبة أمامها.. وكأنّها ظهرت من العدم.. تقذفها بنظرات

عبوس مليئة بتهديد.. لمعـــت عيناهـا فجـــأة، جعلت معصومة تتبول على نفســـها من شـــدة الهلع.. ثم اســـتدارت الصغيرة ورجعـــت إلى الغرفة بخطـــوات وئيدة.. اعتلـــت السرير لترقد بجانب أمها بهـــدوء، قبل أن يملأ الارتعاش معصومة التي تحاملت على نفسها وأسرعت من خطاها فقط لتصـــل إلى غرفتها المظلمة.. أغلقت الباب على عجل، وأســـندت جذعها عليه.. حتى تهالكت قواها شيئًا فشيئًا وجثت على الأرض وكأن الشيطان كان يلاحقها ساقاها ثِقْلا حديد ورأسها يقرع كالطبل، زفرت بشدّة تبديدًا لخوف قشعر جلدها قبل أن تُتمتم:

ـ أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

–41–

في لقاء معــه.. أصرّت حميدة بأن تنهي فيها حيــاة صفية، كانت تتحدّث إلى السيد بشــأنها ـ تشــكو إليه بحرقة فاجعة زواجها من عشيقها وعدم إنجابها لطفل، والسيد يســتمع بمكره المعتاد دون تعقيب إلى حميدة، كأن أنفه يستنشــق رائحة صفية.. يهيج الســيد عندما يسمع حميدة تحترق بلذة الملتاعة وتصف صديقتها بالعاهرة ـ سرقته مني ـ والسيد يستمتع بشتمها لصفيّة.. تزيده شــهوة على شــهوة.. يتخيلها عارية تناديه بأن يعتليها.. زوجة الضابط الذي ســيدفع ثمن ما طالهُ من أفعال رجاله الذين بعثهم ليقتادوه أمام الناس إلى المديرية.

يراقب شــفاه حميدة وهي تملي عليه حكايات صفية التي خطفت عشيقها منها، وزادت حياتها تعقيدًا.. ترتعش أناملها حينما تذكر اسمها، ويتهدّج صدرها بنفسٍ مضطرب حينما تذكر اسم عشيقها.. تغوص بذكراه.

والســيد يكتفي بابتسامة من طرف شفتيه، وتارة يمسح بعينين راعشتين جائعتين إلى المزيد من اللذّة.. رأســها إلى قدميها.. ليُركّز نظره في النهاية على ساعدها المُثقل بالذهب.

أردف:

ـ تريدينها لعبة بين أصابعك الناعمة.. تلعبين بها كما تشائين؟

اتسعت عيناها وقالت في غبطة وحقد:

ـ لعبة بين أصابع يدي.. كيف؟

ـ الأمر سهل جدًّا.. بالصبر نزيحها وقبل كل شيء تسمعين تعليماتي لكي لا يشك زوجها.

ـ كيف؟

غطى السيد كتفه بعباءته وقام من على الأريكة متوجهًا للمكتبة الكبيرة الموجودة في الديوان، وبخطوات هادئة محفوفة بسكينة عالية في نفسه.. ما إن وصل المكتبة مال بجذعه على مجرّ.. سحبه برفق.. وتحسس خلفه ثم لامست أصابعه كيسًا صغيرًا اقتلعه بخفة.. ثم رجع ليجلس مكانه، أشار لها بالاقتراب بسبابته.. اقتربت منه حتى تكاد تلامس وجهه تنظر إلى الكيس بوجل.. انتشى من عطرها ثم حرّك الكيس الصغير أمام عينيها كأنه ليغريها.. قالت:

ـ ما هذا؟ كيس سكر.

أطلق ضحكة سخرية خفيفة.. ثم أمسك ضحكته قائلًا:

ـ بداخل الكيس وصفة سحرية سيجعلها شخشيخة بيدك.

ـ اتسعت عيناها وسألت وهي تتفحص الكيس بعينين لم تخلوا من الخُبث:

ـ كيف؟

ـ على أن تعتاد هي على جُرعات عديدة وسيكلفك كل كيس مبلغًا من المال.

لم تهتم للجملة الأخيرة.. بقدر اهتمامها بما بداخل الكيس:

ـ لا يهم أخبرني كيف أجرب هذا الكيس.

ـ حسب ما علمت.. صفية تحضر كل يومين إلى دارك لشرب القهوة معك.. تخلطين شيئًا قليلًا منه بالبن أثناء إحضارك للقهوة وترتشفها هي، يوم يومان ثلاثة سوف تأتي من تلقاء نفسها لا تستطيب قهوة في الدنيا إلا قهوتك..حينها أظهر أنا في الصورة تأتي هنا أقابلها وما ستطلبه هي سيكون بثمنه.

ـ قصدك تُدمن على هذا الشيء؟

ـ بالضبط ونقبض على زمام الأمور وتزيحينها من غير تعب.

أزاحت رأسها وقد التقطت الكيس من يده.. تمعنت فيه ثم أطبقت كفّها عليه قبل أن تدخل معصومة بالشاي. لزما الصمت حتى وضعت صينية الشاي على الخِوان وغادرت الديوان بهدوء.

ـ خادمتك الجديدة رهيبة.

ـ من معصومة؟ نعم وجميلة أيضًا.

ـ مريحة؟

ـ لم أجرّبها بعد ـ قال مردفًا بأسف ـ.

شردت قليلًا واشـــتعلت أفكارها على الفور، كما تشـــتعل النار في القش وتلتهمها من الجنون.

لاحظ شرودها فأيقظها السيد من سُبات أفكارها قائلًا:

ـ أراك ذهبتِ بعيدًا.

ـ ذهبت بفكري إلى هذه العاهرة.. كيف ستكون نهايتها.

ـ سيكون لكِ وحدك لن تنافســكِ أي عاهرة عليه بعد اليوم السيد لا يُخطئ.

ضحكت بصوت عالٍ ثم أخرجت من صدرها محفظة من القماش فتحتها وأخرجت منها مبلغًا من المال وســلمته.. ثم لفّت كيس القماش واضعةً كيس البودرة في داخله وخبأته بين متاهات صدرها الثائر.

ناولت السيد المبلغ، تفحّصه بسرعة فكسا الرضا وجهه ثم دسّ المال في جيبه.

أملاها بالتعليمات وكيف ستقوم باســتدراج صفية إلى إدمان هذا الصنف ببطء لكي لا تثير شكوك من حولها وخاصّة زوجها..

* * * * *

كان الجــو حارًّا.. الهواء لافح، والرمل في الخارج يتطاير كشــهب الســماء لتخرق الوجوه والصدور.. كان سائق حميدة ينتظر كاظمًا غيظه يلعن سيدته وزوجها، واليــوم الذي عمل به معهما، متى ســتنتهي هــي من الزيارة المباركة، ويرجعان بســلام إلى البصرة.. ويتخلص مــن هذا الحرّ.. كان يتســاءل بغضب وإذا به قبل أن يتم السبّ المتواصل حتى ظهرت السيدة وهي خارجة مــن الباب ليذوب غضبه وينســى اللعن، ركض باتجاهها ليفتح البــاب.. تغيير مفاجئ في لهجة اللســان الثائــر.. الآن بدأ يتفوه بكلمات تُعبّر عن الاحترام للسيدة التي قالت له:

ـ تأخرت عليك.. أعرف أن الجو حار وهالِك.

ـ لا لا بالعكس لو حتى كنتِ ستتأخرين اليوم بأكمله لن أكِلّ عن خدمتك.

فتح الباب الخلفي لها لتجلس، ثمّ أغلق الباب بهدوء و أسرع إلى مقعده.. أدار محرك السيارة بابتسامة رسمها على وجهه، لينطلقا ويرجعا من حيث أتيا «البصرة».

–42–

رأته يستمني!

يطلب اللذّة الجنسية منفردًا.. كالعادة راقبته من فرجة الباب وكأنها التقطت شيئًا لا يقدّر بثمن.. كان الجميع خارج الدار عندما بكّرت معصومة بالرجوع من السوق.. عرجت على غرفة السيد الذي لم يحس بها حتى اللحظة الأخيرة. لم تنتظر ليُكمل شعرت بشيء من التقزز للمنظر.. فغادرت المكان على عجل.

دخلت المطبخ وتصنّعت بالانشغال.. شردت أفكارها حتى..

وبخطوات هادئة وبابتسامة عابثة على وجهه الشاحب أخذ يقترب منها إلى أن بلغها ليقف أمامها مباشرة.

حدقت فيه بمزيج من الرهبة والذهول والرعب ليبدأ هو بصوت حمل من العبث أهواءه.. اقترب منها وبدأ يتمتم بكلمات جعلتها ترتعش.. أغمضت عينيها وشعرت بدوخة ودوار شديد.. حتى بدأت تفقد وعيها.. أجلسها على الأرض.. وجثا معها يتحسس بيده تتلمس أماكن من جسدها.. هنا انهارت معصومة.

نفث هواءه في صدرها، اشـــتعلت الجذوة في صدر السيّد.. حتى امتدت النيران إلى أنفه وعقله، تريد أن تقاوم ولكن عبثًا.

أحســـت بأنها مُكبّلة وما هي بمكبّلة.. كانت أنفاسها الحارة وهي ممدّدة على الأرض تخمش روحـــه.. لم يلحس بل أكل الشـــفتين وأخذ يعصر وينهل منهما عصير النشوة.

غاص فيها كـــما لم يغص في امرأة من قبلها.. أصغت الشـــياطين والجان لصوت اللثم واللهثان.. القرين يبارك للســـيد خطواته.. قبل أن يعض شـــحمة أذن خادمته.. لتسري الرعشـــة فيها وتلغي فكرة أن تقاوم هذا الرجل المُبارك.

يمتص الدماء من عروق الرقبة منتشـــيًا من عطر جســـدها أعلى مراتب النشوة.. حتى اعتلاها.. اعتلى سماء معصومة.. خرّج جناحيها واعتصر ســـحابها الداكن.. تتهدّج أنفاسه ويرتعش جســـدها الثائر تحته، وهو لا يكُف عن التمتمات وكلما زاد في القراءة تتسمر معصومة وترغب بالمزيد فاقدة وعيها لا تتفوّه شفتاها سوى بكلمتين:

ـ مولاي السيّد.

–43–

وضعت أربع ملاعق من البُن العربي المطحون ثم ملعقتين للهيل المطحون وتلتها كوبي ماء قبل أن تضعه على نار هادئة لتغلي القهوة بهدوء.

كانت صفية واقفة وراءها تبثّ كعادتها شكواها لصديقتها.. ثم تضحكان بعد قليل بلا توقف عن ذِكرِ جودت في صولاته الغرامية معها سابقًا.. وصلت القهوة درجة الغليان ورفعتها عن النار قبل أن تفور برغوتها السمراء.. وضعت فنجانين ودلّة القهوة في صينية فاخرة وتوجهتا إلى الصالة.. سبقتها صفية بالخروج من المطبخ قائلة:

ـ أحسن شيء أن تصنعي قهوتك بنفسك.

ـ طبعًا حبيبتي القهوة دليل ذوق المرأة.. فقط أنا من أجيد صناعتها وعلى مزاجي.

استغلت حميدة انشغال صفية بالكلام، فعمدت أن تمشي وراءها وتُصنّعها بانشغالها لكي تفرغ في فنجان صفية بعضًا من البودرة البيضاء.. ثم أخفت الكيس بسرعة.

جلستا على الأريكة وبدأ الحديث بأريحية عالية ثم بصب القهوة برغوتها الكثيفة الشهية، التي أثارت من عبق عطر الهيل انشراح النفس

وارتياحها، راقبتها حميدة بشيء من القلق لترى ردّة فعل صفية من مذاق القهوة الجديد.. أحسّت بشيء من قساوة المرارة عندما انعكس ذلك على وجهها.. حتى عاجلتها حميدة بالسؤال وبشيء من القلق كسا وجهها:

ـ أ... أعجبك؟

ـ نعم بالرغم من مرارتها ولكن هذا ما أحبه من القهوة.. هذه المرّة أعترف بأنك برعتي في صنعها.

ارتاحت أســـارير حميدة وهي تلعن في سرّها السيد على دهائه.. وبعد ثلاث ساعات بدت صفيّة منتشـــية.. بانت كسندريلا ثملة، ولم يمر الوقت طويلًا حتى تدفقت النشـــعة في مساماتها ورأسها.. كان ثوبها قصيرًا جدًّا والساقان ناصعتا البيـــاض كعمود مرمر في معبد يهودي، كلما حرّكت ســـاقيها انفرج ليكشـــف عن لباسها الأرجواني يســـتقر هادئًا ما بين فخذيها.. لمحتها حميدة وشهقت بهدوء، حيث نزل مساء ذلك اليوم بغتة.. مساءٌ سقط كستار مسرح كســـا الســـماء صفاءً وبهاءً، أدركت حميدة أن خطتها نجحت، فها هي ترى التواء جسد صفية في جلستها كســـمكة ذهبية تسبح في نهر هادئ.. تحسّ في نفسها بحيوية ونشاط.. حيث أثّرت القهوة على فيزياء جسدها.. ومنحنياته القياسيـة، حينما بدأ عقلها بالانطفاء، وتركت نفسها ليسقط سقوطًا حرًّا بين أحضان النشوة، مسكت برأسها ثم قالت بنعومة الأنثى:

ـ أحـــس بأنّي أطرق أبواب الجنة.. وأدخل رياضها حافية القدمين، ســـأطير فوق خضارها باسطة جناحيَّ في شرقها وغربها.

ـ أحسّك ارتحت جدًّا.. وأنا سعيدة لرؤيتي ذلك.

ـ فعلًا مرتاحة نسيت كل ما كان يشغلني من هم.. أشعر بإشراقة جديدة.. هالة من السعادة والثقة تحيط بي.. أنا ملكة اليوم.

زفرت حميدة بغيظها المعهود، زمّت على شفتيها وأكملت في نفسها:

ـ ونحن الوصيفات أليس كذلك؟ بنت العاهرة.

ثم أردفت حميدة:

ـ سيوصلك السائق إلى البيت.. لا تجهدي نفسك حتى يرجع جودت غدًا وستكونين بصحة أوفر.

تخللت أناملها شعرها الحرير الذي انساب على جبينها فزاده تألقًا وجمالًا، أضرمت الحريق في قلب غريمتها وأشعلت نار الهوى بإبطها الذي بان من فرجة الفستان.. وبساقيها اللذيذتين كقصب السكر، رأت حميدة في صفيّة ما لم تره طيلة فترة معرفتها بها.. هل انتقل إليها عدوى المثليات أم أن البودرة مسحورة فطاش بصفية ما طاش من نشعتها؟

أرسلت صفية عينيها للسقف في شرود ثم داعبت السلسلة المتدلية في الوادي المحفور في صدرها الذي يتفتّقُ منه ثديان ناضجان كريمان.. تتكلم بتأنٍّ وهدوء وراحة.. وأنوثة هائمة وبلسان يتحرك غنجًا.. حتى استسلمت جفونها لإغفاءة إجبارية، قاومت الرخاوة بهز رأسها عدة مرات.. أعانتها حميدة على الوقوف ثم نادت الخادمة لإخطار السائق بإحضار السيارة.. وعندما رأت صفية قد استسلمت للنعاس احتضنتها وألقت ذراع صفية حول رقبتها وقررت أن تذهب مع السائق لتضمن سلامة وصولها وهناك في بيتها ستتدبر أمرها مع خادمة البيت.

–44–

البصرة «الهارثة»

ـ 1932 ـ

في صباح يوم هادئ.. كان موكب صغير قد استقرّ أمام بيت السيد سامي يتألف من أربع سيارات سوداء فاخرة، عندما نزل صاحب العمامة السوداء بوجه عابس وعينين متهكمتين زادته رهبة على رهبة.

استقبلهُ السيد سامي بحفاوة ثم أدخله إلى الديوان الفخم الذي تغيّر كل أثاثه بعدما أغنته أموال الوافدين إليه وأصبح رجلاً يُقَدّس سِرّهُ في كل مكان.

اتخذ الضيف مجلسه على الأريكة التي تتوسط أريكتين خشبيتين في وسط الديوان.. وجلس السيد سامي على الأريكة اليُمنى باحترام، أما الحُراس فمنهم من انتظر أمام باب الديوان ومنهم خارج الدار.

كان حديث مهم يحمل في طياته سرية تامّة ولا يقبل التأجيل.. من خلال كلمات الضيف الذي تطرق إلى أمور المملكة.

أمّا السيد سامي فنزل عليه صمت الكهوف وهو ينصت بوجل واهتمام للضيف المهم:

ـ بعد ثورة العشرين خان الملك فيصل العهد بيننا.. قمع انتفاضتنا وأهلك رجالنا.. وقع معاهدة سلام بينه وبين بريطانيا ولكي يحمي الموصل من تركيا رضخ وبكل دناءة لسياسة لندن.. بعض مراجعنا الدينية رفضت سياسته وحتى إيران رفضت الاعتراف بدولته.. بريطانيا تضغط على الملك لكي يوافق على سياستها في العراق ومواجهة الانتفاضة في الوسط والجنوب ضد الانتخابات.. ومهازل الملك التي تستهدف رجال الدّين الشيعة على الوجه الأخص.. لا نعتقد بأن الملك فيصل سيطول بقاؤه.. عامهُ سينتهي قريبًا ولكن القادم هو ابنه غازي.. وهذه العائلة لو استمرت بالحُكم فإنهم سيبيدوننا نحن السادة، من ينسى لقاءه بالسيد الخالصي عندما قال له السيد «إننا نبايعك على العراق، على أن تسيروا بالحكم سيرة عادلة، وعلى أن يكون الحكم دستوريًّا نيابيًّا.. وأن لا يتقيد العراق على عهدكم بأية قيود أجنبية».. ووعدهُ الملك خيرًا، كما في كل زياراته عندما يقول للناس شعارهُ البائد «الدّين لله والوطن للجميع».

ـ نعم وأتذكّر جيدًا قبل سنوات عندما ألقى كلمته في المدرسة الجعفرية «بأنه وعد بإنتاج سياسة التسامح والمحبة وقال إنه لم يأت إلى العراق للبحث عن عرش أو فخر وإنّما غايته خدمة العراق.. ولولا إلحاح أصدقائه ومجموع الأمة العراقية.. لما خطر في باله أن يأتي للعراق، وأنّ كل أعمال النهضة التي قام بها أفراد أسرته ليسَ بمطمع في شيء وإنما ابتغاء لوجه الله.

سخر الضيف وضحك بصوت عالٍ ثم أخفض صوته فجأة قبل أن يردف في أمر هام:

ـ وقد صدّق العراقيون به، يستخف بعقولهم، هو «يزيد» الحقيقي.. إنه صورة طبق الأصل لقاتل «الحُسين».. والانتقام منه واجب.. سيّد سامي نحتاج إلى ثورة تكون الأخيرة ونأخذ بثأرنا المكبوت طوال أكثر من 1000 عام خلت ونحكم بعدها بعترة آل البيت وننهي حُكم «بني أميّة» للأبد.

ـ الملك بضاعة متهرئة استوردتها بريطانيا لنا.

ـ لو بات الأمر كذلك سيفنينا الملك.. لن تجد هناك رأسًا واحدًا يعتمر عمامة سوداء، ألا يكفي أن يحرمنا من حقوق المواطنة ويُشيع فكرة «الأغلبية الشيعية الجاهلة».. وبهذا سيقضي علينا وبعد 100 عام لن تجد من نسلنا شخصًا واحدًا يُطالب بحقوقنا المُغتصبة.. إذا لم نقاوم تطرّف الملك فلن تسلم العمائم من بطشه بنا أبدًا.

ـ أنا لن أتهاون مع سياسة هذا الظالم.. حتى ولو اضطررت أن أضع كل جهدي لإفشال قرارات ومخططات الحكومة.

هكذا ردّ السيد سامي بحزم.

هنا ابتسم الضيف.. ولوّح عن الرضا بابتسامته للرد.. راق له ما بدر من ردّة فعل من قبل سيد سامي.. ثم مال برأسه حتى كاد أن يلامس وجهه خد الأخير:

ـ سندعمك.. لدينا ما يكفي من حوزات.. وطلاب، وأناس يساندون كل من يضع يده بيدنا.. تأجيج الانتفاضات.. الفتاوى وكسب أكبر عدد ممكن من مقلّدين ومراجع.. حال إصدار الفتوى ولن يتأخر الشعب في التلبية..

وسيُلبون بكل فخر فتوى مرجعهم بلا شك.. نعلم بأنك تغلغلت ببركة آل البيت في نفوسهم.. يحلفون باسمك ويغدقونك بالعطايا.. كل هذه الأمور قد نصبتك شخصية دينية لا يُستهان بها.. كان الخالصي يقودنا قبل نفيه بحكمته ووقاره.. وإذا فقدت شيعتنا المرجعيات فسيتشتتون كما تشتت بنو إسرائيل، لدينا أفكارنا ونسعى إلى أن تُطبّق.. ونحارب انتشار أفكار بني عباس والأمويين.. هذا الملك لا يرحم وقد يهلكنا، فكما تعلم الأوضاع الخارجية متقلبة.. تارة مع بريطانيا.. وتارة أخرى مع إيران، وتركيا، أتاتورك بعد إلغائه الخلافة الإسلامية وإعلانه الدولة العلمانية صعد نجمه لدرجة أن أطماعه امتدت لانتزاع الموصل.. وإيران تطالب بجزء من شط العرب ولها أهداف إن تتحد مع أهدافنا لقضينا على الملك من الداخل وعلى دولته المدنية الحديثة وجيشها بالكامل.

ـ لقد نجح الوغد في نيل الاستقلال وكسب ودّ الشعب.

قالها السيد سامي بوجوم كبير.. ولكن الضيف قلل من أهمية هذا الموضوع قائلًا:

ـ لم يكد لينال الاستقلال لولا النقاشات الصعبة والحادّة مع المندوب السامي «هنري دوبس» وكم من مرة تأزمت العلاقات بين البلدين.. سيد سامي علينا بضرب أي حزب يحاول أن يملك أيديولوجية وطنية تريد أن تتشعب بين الناس كـ «حركة الأهالي» التي تسعى الآن لتركيز دعائمها في الداخل.. ولا تنسَ أيضًا أن هناك مشاكل مع الكورد.

ـ الكورد؟ ـ تساءل السيد سامي ـ ثم أضاف مردفًا:

ـ لا يربطنا بهم شيء.. يريدون استقلالية إقليمهم عن العراق.

ـ إن اتحدوا مع بريطانيا لربما سينالون الاستقلال.. ولكن قضيتهم قد طغى عليها اليأس بسبب موقف بريطانيا منهم، سيد سامي إن تحالفت الأحزاب وتشعّبت جذورها فلن نطول شيئًا من السلطة.. وسيركلون بنا إلى مزبلة التاريخ.. لا أحد مُطّلع على مذهبنا، إنّنا نحتاج إلى تصدير ثورة باسم الإسلام وفتح باب تشييع واسع كما حدث في العهد الصفوي الذي قطع دابر السُّنّة وشيعت العِباد في إيران.. فالناس أن أجّجتهم باسم «الحُسين» فلن تتوقع ما سينتج من هذا البركان الثائر من عواصف.. لدينا من نعتمد عليهم بالسلاح والمال.. انظر إلى اليهود.. مثّلهم في مجلس الأعيان العراقي «مناحيم دانيال» ثم حلّ محله ابنه «عزرا مناحيم دانيال» كعين في مجلس الأعيان من هذه السنة المشؤومة.. نريد أن نضع يدنا بيدك وفي كل يد كل سيد له شعبية ومؤهل للقيادة.. فلا تدري غدًا من سيحكم ومن سيظهر لتوحيدنا بمباركة مخلص الزمان «مهدينا المنتظر».

مدّ يده بيد سيّد سامي فشدّد عليها ليتم الاتفاق بينهما على قدم وساق.

–45–

بعد ستة أشهر كانت صفيّة قد بلغت ذروتها من الجنون.. جنون الإدمان.. تلجأ إلى حميــدة دائمًا لكي تفيــض عليها من خيرات البــودرة وتغدقها هي بدورها مبلغًا مــن المال. فكل ما يهمها هو مزاجهــا.. تلك البودرة الكريستالية البيضاء لا يقاوم النظر إليها دون التهامها.. تفرغ محتواها على يدها ثم وبشمة واحدة تغرف كل شيء ويستريح رأسها من الضرب.

بلغت مرحلة الاعتماد على استنشاقها.. كلما حاولت التخلي عنها فشلت.. فقد أصابها أعراض الانسحاب الذي لا مردّ من أمره. وصل بها أيامًا أنها باتت تتوســل إلى حميدة لإعارتها كمية ولــو صغيرة لحين رجوع زوجها وينفحها بالمال كالمعتاد.

حميــدة التي كانت تمقتها بدأت ترتاح لما يحــدث لصفية الآن.. تتلذذ من رؤيــة صفية قد ضاعت في متاهات الإدمان.. وأحســت بأن الوقت قد حان لعرضها على السيّد.. فهو قد طلبها لهُ ما أن تصل صفية إلى مرحلة الإدمان الحقيقية.. طلبها لكي يغرف من رحيق عسلها وينهش لحمها.

رحّب السيد بالفكرة بعد أن أبلغته حميدة في زيارة خاطفة له بأنها تودُّ إحضارها إليه.. ووصّاها بالتريّث حالما يرسل سارية وابنتها ومعصومة إلى منطقة القُرنة التي تبعد نصف ساعة عن الهارثة.. لكي يختلي بالأنثى الجديدة.. كما كان يفعل دائمًا عندما تأتيه امرأة غلبها الإرهاق أو أمر أعاق عليها لذّة العيش.. ويتيح له فعل المتعة ثم تتوسع الأفعال إلى ذروة الرذيلة.

كانت معصومة في هذه الأثناء تسترق السمع بحذر واهتمام.. قبل أن تتلقف أذناها اسم زوج صفية ـ حميد بيك ـ الضابط الذي كان يومًا مسؤولًا في أمن الهارثة.. قبل أن يشغل منصب أكبر والانتقال إلى عمله الجديد في مديرية أمن ميسان.

سمعت معصومة كل شيء، قبل أن ينتهي اللقاء بين حميدة والسيد، ابتعدت بسرعة عن الباب ولبدت داخل المطبخ وهي تسمع وقع خطوات السيدة نحو الخارج لتعود أدراجها مع السائق إلى البصرة.

ظهر فجأة أمامها كعفريت.. انتفضت وكأنها رأت شبحًا.. حدّجها بنظرات ثاقبة وجامدة.. لا تخلو من حقد، طال وقوفه أمام باب المطبخ، زادها ارتعابًا.. تحاول جاهدة ألّا تفضح أمامه خوفها.. تشعر أنها قشة هزيلة، لم ينبس السيد بكلمة ولكنه حرّك جذعه بهدوء ومشى إليها بخطوات بطيئة، ثم رفع يديه وأمسك بقوة كتفها كفك مفترس يمسك بضحيته.. أوجعها وكأن كماشتين قد أمسكتا بكتفها وستخلعه لا محالة.

قال:

ـ أنا السيّد ســـامي.. هذه القرية عبيدي.. كلها ملكي.. لم يعاندني إنسان حتى الآن على بلوغي هذا الجاه وإن فكّر أحدهم وفعل فسأفنيه لا محالة.

كانت جبهـــة معصومة تتفصّد عرقًـــا غزيرًا، وبـــدأت الرجفة تأكل منها وتنتشر فيها كما تنتشر النار في الهشـــيم.. زاد مـــن الضغط وكأنه يُفرغ فيها شحنات الخوف.. مُركّزًا عينيه في عينيها:

ـ إن فكّرتِ بالهروب من هذا البيت فلي رجال ســـيطولونكِ ولو اختبأت في عرين الأسد.. أيتها العبدة.. حينها...

انتظرت هي بفارغ الصبر لتعرف ما بعد كلمة «حينها»...

وعاجلها:

ـ سأقتلك.

كانت الكلمة الأخـــيرة كالنصل غرزها في منتصـــف فؤادها، انتفضت رُعبًا.. قبل أن يتحوّل عنها مبتســـماً.. ويرتقي الـــدرج المؤدي إلى غرفته بهدوء بارد.

–46–

لم تكــن حال وتصرفات صفيّة لِتعجِبَ زوجها ـ جودت بيك ـ بســبب تركيزها القليل والمتشــتت الــذي بات واضحًا جــدًّا.. تغيّرت ملامح وجهها ولم تعد تلك الغادة والفاتنة التي تزوجها قبل سنين.. لا فاتنة ولا غادة كما اعتادها من قبل.. فقد انطفأت نضارتها بشكل ملحوظ.

وفي لقائــه السرّي المعتاد في أحد بيوت حميدة.. أخبرها بكل ما شــاهده في الفــترة الأخيرة على زوجته من تغيرات مقلقــة.. أخفت حميدة قلقها وارتباكهــا، خافت من أن تكون صفية قد وشــت لـ «جودت» عن أمر تعاطيها للبودرة.. ســكتت.. تراقب ردة فعل عشيقها.. لم تطمئن حتى سلتت الكلام من فمه.. عندما أخبرها بجهله بأسباب التغيرات المفاجئة التي ضربــت زوجته فجأة.. ومــا إن تأكدت حميدة مــن أن «جودت» لا يعلم شــيئًا عن زوجته، ارتاحت واطمأنت بأنــه غافل عن كل أمور الأحداث.. ثم قالت بثقة:

ـ لا تقلق فهي لم تتعود غيابك بعد.

ـ سأعرضها على الدكتور.

وكأنّ شيئًا لسعها.. انتفضت قائلة:

ـ لا تحتاج لكل هذه الضجة هي بخير، عندما تتعود على غيابك سوف تعود لوجهها نضارته.. لا تُدللها لكي لا تنقلب عليك.. فالنساء ما إن يرين دلال الرجال الباذخ عليهن سوف يثرن على واقعهن.. أنا امرأة وأعرف النساء جيدًا.

ثم مسكته من تلابيبه وسحبته إلى غرفة نومها قائلة:

ـ أنا أريد أن أنسى البغل الذي في البيت.. وأنا معك.. وأنت الآن ترهقني بعاهرة.. أنتظرك لتأتي في كل شهر مرة لتعتليني.. كفاكَ الحديث عنها.

قبلت شفتيه ثم نزولا إلى صدره، ضمت أصابعه في كفّيها ثم همست في أذنه:

ـ أعشقك في الدقيقة ألف مرّة.

التمست البهجة في عينيه، رأت قليلًا من الشرود قد غلّفه.. فتحاملت على نفسها بالاحتفاظ على ابتسامتها.. عبست كما تعبس الأنثى عندما رأته في وضع الجمود.. أشاحت بوجهها في دلال، فلامس ذقنها في حنو حتى أردف:

ـ أنا أيضًا أحبك ولكن لا يجب أن أهملها.

جاء صوتها مرتويًا بالتذمر:

ـ لم أقل لك أهملها، إنها فقط قلقت عليك.. سفرك جديد عليها لم تتعود أن تفتقدك لشهرين، تتأثر كما باقي الإناث ولكنها ستعود كما كانت.

قبلته من شـفتيه حتـى أثارته، فدخـل في صراع مع أنوثتها ونهشـها، دسّ يديه تحت إبطها يتأملها وينهل من جسـدها بعينيه.. بعد قليل بدأ بلمسـها بنعومة ثم بخشـونة كانت تشعر بقوته العاتية في يديه.. لكنه لم يؤلمها ولو مرة.. كان يمس أصابعها الناعمـة الواحد تلو الآخر.. ومرر أصابعه على سـاقيها.. يمس وجهها ويتتبع انحناءات أذنها دائرًا حول شفتيها بأصابعه الرقيقة.. أدارها.. يعلم جيدًا أنها تحب التدليك.. فدلكها بمفصل أصابعه على عمودها الفقري. يرى انسـياب شعرها على ظهرها كنهر من الظلام. فكشـف عن نهديها.. خلع آخر قطعة حريرية من جسـدها.. وكان هواء الليل باردًا على جسـدها العاري.. فارتجفت شاعرة بالخدر يأكل كل جزء منها.. بلغت يداه نهديها أخيرًا.. مسد الجسد الناعم وداعب نهديها بإبهامه.. يقرصها بين الإبهام والسبابة.. حتى انتصبا وأحست بالألم.

تقطعت أنفاسـها ووجهها تورَّد.. حتى أخذت يده إلى البقعة المبتلة بين فخذها العارية.. وإذا همّ بها.. شهقت بشدّة..

فألقاها على الفراش ثم غرقا في نشوة عميقة.

–47–

عاد وقت الفجر إلى داره.. يترنّح من السُّــكر.. فكان الظلام والسكون يخيمان على أرجاء المكان، قضى ليلة حمــراء مختلفة عن باقي الليالي وكأنه ضاجعها لأول مرة في حياته..كانت تتســاقط خطواتها في داخله كغيث الأمنيات، اخترقته كرمح ثقب الفضاء.. شامخة.. فاتنة بسحرها.. وعطر جسدها حتى كان يتموج من إبطيها بتكاسل.

كانت العتمة تغلف الصالة فأشــعل نورًا خافتًا، تمشى إلى المطبخ فأطلّ برأسه على الخادمة.. فرآها غارقة في النوم فأغلق باب المطبخ بهدوء.. ثم عاد إلى الصالة وجلس مرهقًا بعض الشيء..أشعل سيجارة، واسترخى.. أرجع رأسه إلى الوراء دقائق وشــهق براحة..ثم اشتهت نفسه أن يأخذ كأسًا من الويسكي من بار البيت.

مسح شــعر رأســه بيده ثم قام نحو البار.. صبّ كأسًا وارتشفها بسرعة ثم الثانية أمّا الثالثة ففضل شربها بتأنٍّ.. رجع إلى مجلسه في الصالة وشرد لحظات في عمله الذي تغيّر فجأة.. لم يكن يريد أن يترك البصرة.. ولكن منصبه الجديد يُحتّم عليه ذلك.. سيبقى على الأقل سنة حسب ما ينصه قانون الخدمة.

صح قد خسر المصدر الذي كان يكسب من خلاله أموالًا وهدايا تأتيه من وجهاء العشائر الذين يغدقونه بها في كل وقت، لقاء إدخال بضائع مهمة كانت تأتي عبر الحدود.. مخترقةً الكمارك..كان يحمي مصالحهم.. ولو صحّت له الظروف لنكح نساءهم أيضًا.. ما المانع من ذلك؟ ولم ينسَ تهاونه في تهريب المخدرات التي كانت تدخل من إيران «الترياك» الأفغاني.. الذي ينتشع الفؤاد منه قبل الرأس.. ويُغرق السوق السوداء بشتى أنواع البضائع المهربة بفضله وبإسناد من «رفعت بيك». سيطر عليه التعب وتحامل على قدميه لكي يرتقي السلالم الحلزونية التي تقوده إلى الطابق الثاني من الدار، متى توصله قدماه إلى الغرفة ليتخلص من بنطاله وقميصه.. ويرتدي بيجامته الحرير ويستلقي بثقله المتهالك بجانب زوجته بسلام.

أمسك مقبض الباب الذهبي وأداره ثم دفع الباب بهدوء، تفاجأ من النور يشتعل.. تغيرت قسماته ورفع حاجبيه مستغربًا.. احتلّ أساريرهُ شيء من الهلع.. عندما دخل الغرفة ورأى صفية تحتضن طاولة المكياج مُنكبّة على وجهها بلا حراك.. أسرع إليها كالقذيفة رفع رأسها وبدأ يهزها برفق قبل أن يلاحظ غبار البودرة على أطراف أنفها وملطّخةً خدها بكثافة.. كانت.. قد فارقت الحياة.

–48–

ـ ماتت؟

قالها وقد جحظت عيناه.

ـ زوجها بعث رسـولًا مـن عناصرهِ إلى زوجي ليبلّغـه بالأمر.. ونحن ساعدناه على دفنها.

ـ متى حصل كلّ هذا الكلام؟

ـ قبل أسبوع.. وما إن فرغتُ من واجباتي حتى جئت أخبرك.. ولا سيما أنك كدت تحترق لالتهامها.

اضطرب السيد وتصاعدت أنفاسه في صدره ولكنه يحاول ألّا يُظهر أمام حميدة سوى رباطة الجأش.. ثم استطرد:

ـ اسـمعي ما حدث لن يمر على خير، زوجها ليس برجل سهل، في هذه الفترة بالذات ستتوقفين عن زيارتي حتى إشعار آخر.

ضربت حميدة بسخرية على صدرها وأردفت:

ـ مولاي، ألا أزورك وآخذ منك بركات آل البيت.

قالتهـــا بدلعٍ بالغ حتـــى كادت أن تلمـــس ذكره فمنعهـــا مبتعدًا بضع خطوات.. عبس وجهه وضاقت روحه منها ثم قال:

ـ ستزورينني لكن أنا من سيحدد الوقت.

تصاعد القلـــق في وجهه، الدماء كادت تغـــادر وجهه، على عكس تلك العاهرة التي تشفّت بموت ضرّتها.. ســـألها وكأنه يريد أن يستعلم شيئًا مهمًّا من حميدة:

ـ هل أعطيتها الكيس كله؟

ـ أعطيتها بإلحاح منها.. في أيامهـــا الأخيرة كانت مجنونة جدًّا وكادت أن تفضحني.

ـ أتعرفـــين معنى أن يجدها زوجهـــا منكبة على وجههـــا وملطخة بغبار البودرة؟ زوجها ضابط أمن وليس مواطنًا عاديًّا و..

قاطعته:

ـ لا تقل لي بأنه سيتحقق في الأمر.

ـ هل أنت مجنونة، طبعًا سيتحقق ولن يترك الأمر وشأنه.. بعد أن يتحقق ويكشف الفاعل.. لن أضمن ماذا سينتج عن ذلك من عواقب وخيمة.. خمّني بنفسك.

استنكرت حميدة ما قاله السيد حتى بدأ القلق يخمش وجهها وصدرها:

ـ هل تقصد أنها جريمة قتل؟

هز رأسه بنعم.. وفضّل التزام الصمت.. فلا شهية تبقّت للكلام معها.. فهذه العاهرة أصبحت مملّة بالنسبة له.

ـ استنشقت الكثير.. وماتت.. لا أعتقد ستمر الأيام دون متاعب.

السيد لم يستطع قتل قلقه من الداخل.. لم يكن يتصور بأن الأمور ستصل إلى هذا الحد بسبب غباء حميدة.. التي كانت كالطائر الجميل فانقلب فجأة إلى غراب أسود مشـــؤوم.. جلبت لهُ خبرًا لا يدري كيف سينجو منه.. ومن قبضة زوجها ضابط الأمن.

عليـــه أن يقطع زيارات حميدة قبل كل شيء.. وإلا فزياراتها ســـتؤول عليه بالخراب.. السيد لديه الآن أمور أهم .. اتفق على تنفيذها مع ضيفه وعليه أن يشغل فكره بالتعامل مع التغييرات.

تلفحّت حميدة بملاءتها لتغادر وقد طغى الوجوم على الاثنين..كان ذلك قبل أن تبتعد معصومة عن الباب وتتنصـــل بعيدًا بعد التنصّت.. لبدت كفأرة مذعورة تهرع إلى جحرها.

-49-

انبلجَ الفجر، وبدأت الحياة تدب من جديد في يوم جديد.. يخرج الناس لطلب الرزق، بسطاء يخرجون للعمل اليومي ثم يعودون مع حلول المساء إلى دارهم كشمس مرهقة تنهي دورتها اليومية في الكون الواسع، لكي تؤوب مع المساء المظلم في إغفاءتها المعتادة.

في بداية هذا اليوم البهيج خرج السيد مع سائقه الجديد، في سيارة فارهة وفخمة.. وفّرتها له جمعية دينية بإيعاز من السيد الحسيني، وكان سيد سامي على موعد مهم مع الحسيني لبحث أمر طارئ وضروري لا يقبل التأجيل، توجه إلى البصرة ليلتقي به ويتباحثا في أمر إضراب وتحريك الناس بفتاوى ستصدر من رجال المرجعيات الدينية المهمة قريبًا.. ويجب تهيئة الأجواء الخطابية لدفع الناس إلى الاستمساك بمطالبهم.

وصل السيد سامي إلى فيلا السيد الحسيني في البصرة.. تلقى ترحيبًا واسعًا من مُضيّفه.. دخلا الديوان ثم اتخذ مجلسه قريبًا من مجلس السيد الحسيني على الأرض المفروشة بأرقى أنواع السجاد الفارسي.

دخل الخادم وسقاهما القهوة، ثم انصرف تاركًا دلّة القهوة والفناجين على الخِوان، كانت نبرة الحسيني النشطة تعكس مدى ارتياحه من اللقاء، وعلامات السرور التي كست وجهه كانت تشي بذلك.. فأكسب سيد سامي طمأنينة وثقة أكثر.. نحّى الحسيني عباءته ثم حرّك عمامته السوداء من على رأسه وحك شعره قليلًا ثم أبقى العمامة مرفوعة في الهواء قليلًا وكأنما ليدع الهواء يتخلل شعر رأسه، ثم أردف:

ـ دخل العراق اليوم إلى عصبة الأمم المتحدة، ونوري سعيد استقال.. وأمور الوزارات باتت بيد ناجي شوكت الآن، إنْ نجح ناجي في إحلال الأمن فلن يكون ذلك لصالحنا أبدًا، الفوضى حاليًّا في بداياتها.. عمّت لتشمل مناطق واسعة من العراق، بريطانيا بدورها تبارك وتدعم العشائر والأقليات لأن ذلك سيساعدها على تنفيذ مخططاتها السياسية، وستظل معارضتها لسياسة الحكومة العراقية قائمة من خلال إضعافها عن طريق الجيش وافتعال الأزمات، ولاسيما موقف العشائر من قرار التجنيد الإجباري الأخير الذي تفرضه المملكة العراقية على أبنائنا، وفي حال لو طُبّق هذا القرار المشؤوم فالتمرد والعصيان ورفع السلاح بوجه الحكومة وارد ولن نتراجع.

ـ عشائرنا معروفة بنزعتها البدوية، ونشاطها الاقتصادي غير مستقر.. ويميلون إلى نظام يفتقر إلى القوة، ولأنّ الجيش سيهيء للسلطة فرصة ممارسة مركزيتها، فعلينا أن نقف بوجه التجنيد لكي نُضعف من شوكة الحكومة.

ـ يجب إقناع الناس بأن قانون التجنيد سوف يسحب الرجال من الأراضي الزراعية، وبالتالي فإن الإنتاج للأراضي سيقل.. سيد سامي أهالينا في الجنوب يجب أن يقتنعوا من خلالنا بأن هذه الحكومة لا تخدم مصالحهم وأن دينهم في خطر.. وخطوات الملك تهدف إلى إضعاف الشيعة.

مال الحسيني برأسه وهمس:

ـ بريطانيا تدعمنا، ولاسيما أنها تدعم عشائر المنتفك، وتدعم أيضًا أبرز رؤساء الغراف «صكبان العلي» و«حنون العبيد» وأيضا هذه العشائر لها علاقات بارزة مع بريطانيا وهذان الشخصان لهما رواتب مخصصة من لندن ولن يخذلانا في أن نتحد ضد الملك.

ـ إذن الانتفاضة تنتظر الإذن مِنّا.

ـ الأسلحة ستمر عبر الكويت إلينا، أسلحة بريطانية جديدة وبالتنسيق مع أمراء الكويت، وإيران داعمة لنا أيضًا في خطة ردع الحكومة وإسقاطها.

ـ إن لم نؤجج هذه الاضطرابات، فالنار ستأكلنا.. يجب أن نسدد الضربة جيدًا قبل أن تخمد هذه النار ونكون في خبر كان.

ـ سيد سامي لديك الآن من الأنصار ما يكفي.. وفتاويك مهمة جدًّا لسند الانتفاضة، أنصارك يقدسونك ويجلّونك.. ليس فقط في الهارثة بل في مناطق كثيرة من الجنوب.. ازرع أول بذرة للخلاص لشيعتنا،

وأخبرهم أن شيعة الحُسين في خطر ـ ثم شدّ قبضته ـ أخبرهم بأن أحفاد يزيد باتوا يزرعون منهج الحقد وسيحصدون رؤوسنا.

كان لقاءً حاميًا اشتدت فيه لهجات ولعنات قُذفَ بها على الملك وحكومته، واستمر اللقاء ساعات طويلة من التخطيط على أن يتم تفجير الخطة في ساعة معينة، حتى قطع وقت الغداء عليهما الكلام، تناولا الطعام ثم تكلما بأمور أقل أهمية، وما إن فرغا من الطعام حتى غادر سيد سامي بسويعات فيلا الحسيني، حاملًا منه أذونات بفتاوى كانت قد أعدّت ودُرِستْ من قِبل أعلى المراجع.. يصحب خطواته بمباركة وتأييد موقّع من أغلب المراجع في إيران والعراق.. ومبلغ كبير من المال، كانت قد دخلت في حوزة السيد سامي هِبة السيد الحسيني له.

ولم تمر أيام على لقائه.. حتى كان صوته يصدح بين أنصاره، شدّد على جماعته بنشر خطابات التحريض في الحسينيات مستغلًّا شعائر يزينها اسم ـ الحُسين ـ مستشهدًا بثورته التي تآمر عليها يزيد لإفشالها، كان يُنادي بانتفاضة تقصم ظهر الحكومة الكافرة ـ على حدّ تعبيره ـ ثم أخبرهم بأن آل البيت نادوا بالعدل والمساواة ولن يرضوا بالجور المُسلّط عليهم.. ومن يرفض ذلك فعليه لعنة آل البيت إلى يوم يُبعثون.. فكيف يرضى عنهم الحُسين.. وقتلتهُ يتجولون أحرارًا، ويعيثون في الأرض فسادًا.

واشــتدّت نار الفكرة وبلغت الزعامــات العراقية التــي لجأت لإثارة الثورات والتمردات العشائرية في مناطق الفرات الأوسط وإلى الجنوب العراقي، التي صممت ونادت بإســقاط حكومة الملك فيصل الأول.. والمجيء بحكومة أخرى موالية لها لتبســط نفوذها على الوضع السياسي القائم، فاشــتدّت المصادمات وأصبحت العشائر أكثر عصيانًا مستندين على فتاوى أججت الغضب المكبوت في الصدور وأشــعلتهم نقمة على نقمة على هذه الحكومة.. فكانت الخُطب في الحسينيات لها تأثير كبير على دوافعهم، حتى تقدّمت الدوافع الدينية على بقية الأهداف، فاقتنعوا من خلال ســموم الخطب الدينية بأن يؤمنوا بأن الحكومة تسعى للانتقاص من شأن العشائر والتهوين من مكانتها.

–50–

استيقظ الناس في لواء البصرة على فتاوى أخرى تختلف عن سابقتها تندد.. الإطاحة بالحكومة العراقية من دون أي تأخير، وباتت حركات العصيان تمتد وتكبر كالنار في الهشيم، في ناحية ـ المدينة ـ وقضاء ـ القُرنة ـ في البصرة شـــاركت بكل ما أوتيت من قوة بشريـــة لتنفيذ أوامر المراجـــع الدينية.. حيـــث بدأت في هذه المناطـــق حركات العصيان قائمة على قدم وســـاق، بينما المحاكم العرفيـــة كانت منهمكة في تصفية قضايا الثائرين في الناصرية والديوانية، وممّا زاد من النار لهيبًا هو رفض الملك الاســـترحام المقدّم من وجهاء العشـــائر بإعفاء أبنائهم من التجنيد الإجباري.. فزادت من ثورة العشـــائر ولكنها كما بدأت بسرعة، تمت إبادتها بالسرعة نفسها.. من قبل السلطة التي أبدت غضبًا عظيماً عندما ضبطت لدى العشائر كميات كبيرة من البنادق البريطانية كانت قد هُرّبتْ إلى تلك المناطق المنتفضة.

تلقى ـ جودت بيك ـ أمـــرًا بالتوجه إلى الهارثة لإخماد نار العصيان الذي اندلع فجأة.. لكونه عمل هناك لفترة طويلة ويعلم خبايا وأسرار ناسها، وما تُخفيه صدورهم من أمور.

وأول عمل قام به في ـ القرنة ـ كان حضوره في اجتماع طارئ.. في ساعة متأخرة من الليل مع مدير الأمن ومدير المخفر ـ سعد التكريتي ـ كانت الجلسة يخيم عليها الهدوء ولكن سرعان ما نفضهم وروّعهم إطلاقات نارية أطلقتها سيارة مجهولة سلتت بسلام بعد أن تركت جثث عدد من القتلى لحراس المخفر، تحطّمت على أثر ذلك الهجوم صخور وجوه الضباط الثلاثة ومن معهم، حتى أمر المدير مستجيبًا لحقد كان يخمش بصدره وبضروس تطحن نفسها.. بشن وابل من حملات الاعتقالات على الغوغائيين.

–51–

زارهُ في ديوانه، فاستقبلهُ السـيد سامي بحفاوةٍ أكبر مما كان يستقبله قبل أن يبرق نجم ولايته في المنطقة كمرجع دين.. وواساه على مأساة زوجته أيضًا، هذه الزيارة المفاجئة التي قام بها ـ جودت بيك ـ أربكت السيد في البداية، ولكن ما إن شمّ رائحة السلام حتى احتوته الطمأنينة وجلس مع الضابط ينصت للموضوع المهم الذي جاء به.

ـ لطالما اشتقت إلى اللقاء بك مجددًا سيدنا، ويؤسفني أن زيارتي جاءت في مثل هذا الوقت العصيب.. وسأكون ضيفًا على مخفر الهارثة حتى إشعارٍ آخر.

ـ لا أبدًا.. أعلـم أن البلد يمر بوضع حرج ويعلـم الخالق أنني أحاول جاهدًا أن أهدئ النفوس قدر المستطاع.

ـ يريـدون عبثًا أن يلغوا التجنيد الإجبـاري، وإبقاء المملكة ضعيفة، لا أعلم كيف يفكرون، ولكن الأمور تسـير نحو الأسـوأ.. الملك جاد في إخماد نـار الفتنة ونحن بدأنـا بحملات الاعتقالات التي ستسـاعد في القضاء على المتمردين.

لم يُعقّب السيد.

بل ظلّ ينصت ظاهريًّا، وفي سرّهِ يلعن الملك وأبا الملك والضابط بل وكل أجهزة الدولة.

ـ سـيد سامي نريد أن تعاوننا في هذا الموضوع، فكما نعلم أنّ لك سلطة مطلقة على هذه المنطقة والناس يلتزمون بفتاويك والسلطة المركزية في بغداد واثقون منكم وبمقدرتكم على إقناع المتمردين بالكفّ عن التمرد والعصيان.. وسنوفّر بذلك إراقة المزيد من الدماء التي طالت وستطول عناصر الحكومة والشعب.

ـ سـأعمل جاهدًا لكي أسـاهم في تقليل المظاهرات، فأنا لا يعجبني أن أرى دماءً تُراق لأمورٍ كان من الممكن أن نحتويها بالعقل.

لم ولن يَصْدُقَ السـيد في الحديث البتّة، يناور كعادته، يريد أن يدفع هذا الضابط بعيدًا عنه.. بلسـانٍ ذرب وروح متعطشة لقتله، ولو طالت يداه لفتكهُ ودكّ عنقه.. ينزّ سُـمهُ في جسـد كل شخص يقف في طريق مجده، يملك روحًا فاسدة كمذر البيض فقصَ قبل أوانه، أو كقطعة لحم فاسد، فلم تُبقِ وقاحاته نقطة رحمة في نفسـه المريضة.. لم يخلق من طين.. بل من فضلات الشـياطين، فهوكإبليس يتكلم مع النـاس على هيئة رجل دين يعتمر عمامة سوداء.

بعد سـاعتين غادر الضابط الديـوان، أسرع من خطواته ورافقه السـيد إلى الخارج.. قبل أن تنسحب معصومة من خلف الباب وتغيب كالفأرة في المطبخ.

–52–

في اليوم التالي:

كانت شـــمس الظهيرة قاتلة، حينما فكّرت معصومة أن تســـتغل غياب السيد الذي برح الدار إلى مكان مجهول للقاء مهم بينه وبين أحد المراجع مـــن ذوي النفوذ المهمة، أخبرت ســـيدتها بأنها ذاهبة إلى الســـوق لشراء حاجات ناقصة تحتاجها للوازم المطبخ، لم تمانع سارية التي كانت مشغولة بتجديل ضفيرة صغيرتها.. الجالسة في حِجْرِ أمها.. ساكنة، ملتهية بقضم قطعـــة من الخبز.. أرخت الأم الضفيرة على كتف ابنتها بعدما انتهت من جدلها وقالت:

ـ لا تتأخري فاليوم لدينا عمل كثير.

ـ حاضر خانم.

لاحت منها نظرة إلى الصغـــيرة الهادئة، فحدجتها الأخيرة بنظرة جعلتها ترتجف حتى ضربت الرعشة أطرافها.. فنظرتها كفيلة بمضاعفة الرعب في داخلها.. كادت أن تقضي على روحها.. فلملمت نفســـها وخرجت.. انسلتت بسرعة خاطفة من باب الدار وفي أذنيها هسيس يقول:

ـ الأفعى السوداء تنتظرك.

لم تعر اهتمامًا بادئ الأمر فظنته مجرد أوهام، ولكن ما إن بلغت السوق الشعبي حتى بدأ الهسيس يضربها كالسوط على جسدها.. كالطرق المستميت على رأسها:

ـ الأفعى السوداء تنتظرك أيتها العبدة.. سوداء مثلك.. كأنها توأمكِ.

تحاول عبثًا أن تتجاهل الصوت حتى دار بها السوق وكأنّ ثُقلي السوق والسماء سيقعان عليها.. تحثُّ الخُطى أملًا أن تصل إلى المخفر.. المسافات تمتد بطولها ولا تكاد تنتهي، وكأن الزمن تغير.. والطريق إلى المخفر يمتد وعطشها يزداد.. وكلما توقفت لتشرب زاد عطشها.. تفصد جبينها بالعرق وكلما غسلته زاد العرق وزادت معها حُرقة في بطنها. سلكت الطريق الترابي العاري إلا من الرمال والأشواك.. جلست تحت ظل شجرة استجلابًا للراحة.. ثم عاودت السير.. متعبة ولكنها تشعر بأن شيئًا من الألم قد زال، فأحست بالراحة.

بعد عناء وصلت إلى المخفر.. كانت قلقة فماذا لو ذهب تعبها أدراج الرياح ولم تجد ـ جودت بيك ـ مشكلة كبيرة.. فلن يكون بإمكانها أن تترك الدار مرة أخرى دون ذريعة مناسبة، فرصتها الآن لكي تُفرغ كل ما في جوفها من كلام.. أدخلها الحارس إلى غرفة الانتظار.. طلب منها أن تنتظر وسيحضر قريبًا من يأخذها للقاء ـ جودت بيك ـ.. جلست وأسندت رأسها على الحائط تنفث الهواء الساخن من منخريها وفمها لتستجلب راحة مفقودة.

لم تنتظر كثيرًا حتى ظهر ـ جودت بيك ـ كالشبح من العدم.

–53–

كانوا ثلاثة والسيد سامي رابعهم.. يعتمرون العمائم السوداء، ولحاهم كحاخامات اليهود تغطي وجوههم.. تتخلل اللحى شعيرات بيضاء تسللت بحكم الزمن.. مضيفةً الوقار لهيئتهم. جلسوا جميعًا في ديوان قصر كبير يحرسه بعض الأشخاص. الجلسة سرية وطارئة لدرجة لا تحتمل التأجيل.

بادر أحدهم:

ـ نشكرك لانضمامك معنا، وعلى كل ما قدمته من أمور خدمت الانتفاضة.

ثم بادر الثاني مُربتًا على حِجْر السيد سامي بهدوء:

ـ كلنا يجب أن نتحد في سبيل إرساء دعائم الدّين الصحيح، وجهادنا ضد الظالمين هو هدفنا.. وإكمال لرسالةٍ أبدية لمولانا أبي عبدالله الحُسين.

«سلام الله عليه» تمتم الجميع، ثم أكمل الثالث:

ـ ولهذا كُلنا قد قررنا بالإجماع أن نولّيك على أمور العامّة من شيعة أهل البيت في الجنوب لتكون مرجعًا دينيًّا يمثلنا داخل العراق بدلًا من الحسيني.. فكما تعلم لا نستطيع أن نعلن ذلك علنًا خوفًا من بطش الملك ولكن سوف ننقلك إلى إيران في حال لو قبلت أنت هذا القرار.

ـ إيران؟

ـ حفظًا على سـلامتك لقد وفرنا لك هناك سُبل العيش الكريم لك ولابنتك وحفيدتك حتى تتحقق الأهداف وترجعون للوطن.

ـ ولكن!... إيران!... والشاه؟

ـ الشاه لن يتعرض لك ولا لأحد من رجالنا ما دمنا لا نضر أحدًا.. كل ما ستفعله هناك هو بناء أساس قوي تستند عليه، فتاويك ستنطلق من هناك، فأنت لن تستطيع أن تمارس نشاطك هنا وخصوصًا بعد مقتل الحسيني.

الكلمة الأخيرة كانت كافية بتقليص وجه السيد سامي، فجحظت عيناه قلقًا:

ـ السيد الحسيني؟

بهت السيد من الصدمة، يريد وقتًا لاستيعاب ما يقال الآن، تبخر الكلام، ثم وبملامح تملؤها الإرادة وصوت قوي قال الأول:

ـ أنت من يجب أن يقود الحشد، هم يعتبرونك سيدهم ويرون فيك القوّة لجمع شمل الشيعة.. هم بحاجة لمرجع قوي.

قال الثاني:

ـ لقـد رأينا ذلك من خـلال الانتفاضة.. أبناؤك قامـوا بأكبر انتفاضة على الإطلاق وتقدمت بحماستها على بقية المناطق الجنوبية.

تردد عينا السيد في الحضور ثم قال:

ـ هذا شرف كبير لي ولكن تولّي مثل هذه الأمور س..

قاطعه الأول ويبدو أنه الأعلى شخصية بينهم:

ـ سيد سامي... الحسيني خائن.

–54–

لم يكن سهلًا ما قالته معصومة من اعترافاتٍ كانت كالشياط ضرب أنف ـ جودت بيك ـ فما إن سمع ما سمع حتى صعد الدم إلى رأسه وكزّ أسنانه في صمت، فمعصومة باغتته بأخبار لم يتوقعها قط، انتفخت عروق رقبته وهو يستمع لها تتحدث عن ـ صفية ـ لم يتمالك نفسه، توقف عقله عن التفكير، تحجّرت عيناه وتيبست أطرافه إلا من الأصابع.. ما إن كوّرها حتى طاح بقبضته الغاضبة على سطح المكتب ليُصدر صوتًا قويًّا ارتعبت على أثره مفاصل معصومة.. وبعث بقلب معصومة إلى الجحيم.

******

عندما جلب السيد سامي معصومة إلى الدار بغية أن تخدم لهم وتتكفل شؤون إدارة المنزل، سارع ـ جودت بيك ـ وبأمر من مدير الأمن بأن يُجنّد معصومة بغية الحصول على معلومات تؤكد تورط السيد بانتماءاتها المشبوهة وتعاونه في إشعال الأحداث التي تمر بها البلاد.. وكان يقابلها أثناء فترة إجازتها في البصرة.. وكان يؤكد أيضًا عليها أن تحتاط من كل خطوة، لأن السيد ذكي جدًّا ولن تخفى عليه خافية.

اقترب منها قائلًا بغضب:

ـ معصومة إن كان كلامك كذبًا، فسأعلق جسدك في سقف الغرفة.. أقسم بالله.

ـ سيدي أقسم لك إنني أخبرتك كل شيء.

ـ لا تعتقدي بأني تركت البصرة وأني رحلت عنها للأبد.. كانت العيون تخبرني بكل صغيرة وكبيرة.. وإن كان السيد فعلًا كما قلتِ لي مشعوذًا وزير نساء فذلك سوف يكلفك حياتك إن ثبت عكس ذلك.

ساعتان مضتا، ولكنهما كانتا سنتين.. فلم يكن من السهولة الاستماع بأعصاب باردة لأقوال معصومة خصوصًا أنها ذكرت اسم زوجته، وكيفية استدراج حميدة للإدمان كانت ضربة ثانية له، ففي ملامح ـ جودت بيك ـ هول الحقيقة والغضب يتصارعان، سمع كل شيء، وتمنى لو لم يسمع ما سمع، فالقضية مسّت آل بيته.. كأن الأحداث خُططت لكي تنهي حياته ومستقبله.. ولكن «حميدة»؟

ومن بعد؟ السيد سامي؟ ولماذا؟

ما قالته معصومة ليس بالشيء العابر، فقد جلبت له سر موت شخص يخصه «صفية».

–55–

غـــادرت معصومة المخفر بسرعة، قبل عودة ســـيدها.. تركها ـ جودت بيك ـ ترحـــل.. ولكنها لو تُدرك ما تخبئ لها الرمـــال من فظاعتها لكان بقاؤها في المخفر أرحم.

على رمال الهارثـــة الحارقة، قطعت طريقًا طويلًا لعلهـــا تصل بدون تأخير إلى السوق.. فلهيب الشـــمس الحارقة يحول دون وصولها بسرعة.. ويؤخر تقدمها البطيء.. جلست تستظل تحت الشجرة قليلًا لتعاود المشي بعدها.. تأمـــلُ أن تصل في الوقت المناســـب، تتمنى بأن يتأخر الســـيد ولا يرجع مبكرًا لكي تتقي أسئلته..قامت ثم طوت مسافة أخرى بمشيتها.. تتخبّط ســـاقاها بتراب الأرض، فيرتفع الغبار ويلوث عباءتها، تمشي كمجنونة حتى نهشها التعب والعطش مجددًا، فأحست بضرورة الراحة مرة أخرى واتقاء حرارة الشمس التي ألهبت وجهها الأسود.

ولم تمانع أن تأخذ قسطًا من الراحة، كقيلولة أخيرة.. تحت ظل شجرة باسقة، بسطت فروعها عاليًا، تزين الخلاء بأوراقها الخضراء.

كانت مسترخية وقبل أن تنتبه إلى الشيء المنتصب أمامها.. انقضت كالسهم أفعى سوداء تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان حمراوان كعينين غاضبتين نبتتا من نار الجحيم.

همست بفحيحها على غفلة ثم رشقت نابيها في رقبة معصومة، لتفرغ ذلك السم اللعين في لحظة، حاولت دفع الأفعى جزعة وبيد تأخرت وصرخة يأس لم يسمعها أحد، حتى وقعتا على الرمل فتلوت الأفعى ثم انتصبت مجددًا لتعلن عن هجوم ثانٍ.. جحظت عينا معصومة، تكومت لا تستطيع أن تذود بيديها لدفع الخطر، فالسم بدأ ينهشها، ثم انتصبت الأفعى تُحدّج في عينَيْ معصومة وكأنها تبعث لها برسالة ذات مغزى.

وفي سرعة اخترق أحد أنيابها رقبتها، سخونة في موضع اللدغة، ثم اضطربت أنفاسها مع ضربات قلبها، زاغ بصرها، خدرت أطرافها قبل أن ترمش بعينيها.. تخيل لها بأن الأفعى انشطرت إلى اثنين.. انتابها الغثيان قبل أن تقترب الأفعى منها، والتقطت أذنا معصومة آخر فحيح ستسمعه في حياتها:

ـ هذا جزاء من يحاول الولوج في حياة تابعينا.

ثم لثمتها الأفعى بسرعة في وجهها ثلاث مرات لتقنعها بأن الموت هو الحاضر الوحيد الآن.

–56–

ـ سيد سامي مغادرتك للعراق باتت أمرًا ضروريًّا.

عقّب الثاني:

ـ كل شيء جاهـــز في إيـــران.. وفّرنا لـــك كل مقومـــات الزعامة التي ستساعدك في تثبيتك كمرجع ديني.

قال الثالث:

ـ الدار والمال والأعوان، ونفوذك سيمتد من إيران إلى العراق وأيضًا ستحكم مناطق شاسعة في المستقبل.. وسنعمل على ترسيخ هذه المخططات على أرض الواقع ولا تقلق من دعمنا لك، ســيد ســامي العيون باتــت تراقبك مؤخرًا ولاسيما بعد هذه الانتفاضات التي قامت ضد الملك وجلاوزته، وسيحاولون اغتيالك لا محالة.. ونحن في أشد حاجة إلى مرجع ديني يُقتدى به بين صفوفنا.

ـ فجر غد سيحضر أحد من أتباعنا.. لينقلك إلى مكان آمن ومن ثم تغادر فورًا أرض المملكة إلى إيران.

كان الأمر مفاجأة لم يتوقعها السيد، مغادرته للعراق في ليلة وضحاها، وزيادة العنف الذي أدّى إلى قلّة الأمان، ولا شــك ســتؤثر كل هذه المجريات على مستقبل السيد الذي يرنو إليه.. وبلا شك إذا بقي في العراق فهو هالك.. فالرحيل كما قالوا مهم.

مدّ المعمم الأول يده وبسط شيئًا ملفوفًا على الطاولة، أزاح القماش عن سكّين لامعة، مقبضها ملفوف بقطعة كتان خشن ونصلها المشحوذ على حجر، تطلّع السيد بعينين تلمعان ولن ترفضا رؤية مشهد قتل قريب، ثم قال الرجل الثاني بابتسامة خبيثة رُسمت على شفتيه:

ـ الحُسيني وأنت ستستقلان نفس السيارة، لقد دبرنا أمر لقائه بك صدفة وخططنا له منذ شهر، ما أن ينطلق السائق بكما حتى سيتم التخلص منه في منطقة تم التخطيط لها من قبل السائق، فهو قاتل محترف من أتباعنا المخلصين.. ثم سيعود بك إلى الهارثة، وفي الفجر ستقلكم سيارة خاصة إلى إيران.

ـ ولكن عليَّ تمهيد الأمر لابنتي.. فخبر الرحيل سيفاجئها.

ـ لن ترفض إذا علمت بأن بقاءكم في العراق يهدد حياتكم فهي أم وستعي ذلك ـ قال الأول ـ.

ـ الحسيني الآن في لقاء مع أحد المسؤولين، خطة مدبرة لاستدراجه، سيُحضره السائق إلى أمام الدار ليقلكما في نفس السيارة إلى المكان المقصود، لتشهد على ذبح الخائن.. هذا السكين.. مسموم.

سأل السيد بخبث:

ـ هل لي أن أطلب شيئًا؟

تبادلت النظرات في العيون متسائلة، ثم أردف الأول:

ـ تفضل.

ـ هل من الممكن أن أغرز النصل في الحسيني بيدي.

ابتسمت الوجوه في رضا ولم يعارض أحد على الفكرة.

–57–

ها هي السـيارة تنطلق بهما بعيـدًا عن حدود البـصرة، تحمل رجلين مهمين.. أحدهما رجل أصدقاؤه من الجن والعفاريت، يُسخّر قرينه في قضاء ما يلتوي من الحاجات، شـهرته بذلك تجاوزت المدينة ووصلت إلى أقصى الحدود، وتسامع بها أهل المدن والأرياف، حتى أخذوا يسعون إليه زحفًا.

والثـاني: رجل دين له صولاتـه وجولاته مع الدولة لكـي يُحافظ على الرسـالة التي أنيطت به من قبل جمهوره من الشيعة لنصرتهم حتى ظهور إمام الزمان «المهدي المنتظر».. وسيسـتميت من أجل نشرها بين الأمم مهما كلّفه الأمر.

على بُعد أميال من البصرة اختار السائق وبحنكة شخص له خبرة واسعة في مجال التخطيط، طريقًا صحراويًّـا مقطوعًا شريانه عن الحياة تمامًا، لا يصله إلا الجان والشـياطين، لجأ إلى طريق مقفر مسدود بحجة عطل في السيارة، كان الحسيني مشـغولًا بالحديث ولم ينتبه لانعطاف السائق إلى

الطريق المهجـــور إلا بعد فوات الأوان ولكنّه لم يشـــك بشيء، فقد كان مغتبطًا باللقاء المفاجئ الذي جمعهُ بالسيد سامي.

ترجلا من السيارة قبل أن يبدأ السائق بإصلاح العطل المزعوم.. فانكب بجذعه على محرك الســـيارة يتظاهر بالإصلاح الوهمي.. وقبل أن يبتعدا بقليل.. فطن الحسيني بتذكير السائق قائلًا:

ـ لا تنسَ بأن لديك عملين اليوم.. إيصال سيد سامي إلى الهارثة ومن ثم تتجه بي إلى النجـــف الأشرف حيث يجب أن أكون.. أعانك الله على هذا العبء الثقيل يا بني.

طمأنه السائق بأن كل شيء سيكون على ما يُرام.. وباشر عمله مُخربشًا خربشات ولطشات توهم الحسيني بأنه يحاول أن يُصلح العطل.. حتى ابتعدا عنه.

* * * * *

كان السيد سامي يمشي بمحاذاة السيد الحسيني، بتأنٍّ يستمع بخشوع إلى ما يقوله صاحبه:

ـ ســـيد سامي.. أنا وأنت نستطيع أن نكون قوّة كُبرى.. لدينا من الأنصار ما يكفي لتمهيد ذلك.. وحدتنا كافية لإقامة حزب ينصرنا.. حزب ذكره الله في قرآنه ووعدهم بالنصر.. نقيم بعدها إمارة حُكم في الجنوب العراقي ونُطلق التشيع بعدها إلى الدول المجاورة.. يتشيع بعدها بلد بعد بلد.. فكل شيء...

هنا تباطأ السيد في خطواته وترك الحسيني يسبقه قليلًا بخطواتٍ ثقيلة.. وبعينين زاجرتين أغمد النصل في ظهر الحسيني وبيد أخرى كتم أنفاسه بقــوة ليمنعه من الصراخ أو المقاومة.. تلقى الحســيني الطعنة فتقلصت ملامحه، حتى انثنت قامته في صدمة، بذهول تأمّل دماءه الساخنة، أحسّ بالدماء وهي تتدفق حول السكين الغائر في لحمه، جثا على ركبتيه فوقف السيد سامي أمامه يرمقه بهدوء قبل أن يكز بقدمه صدر الحسيني ويسقط على التراب فاغرًا فاه.. ممرغًا وجهه بالتراب.

جســمه يضطرب ويتخبط ويتفجــر منه الدم في قــوة كانفجار الماء من الينبوع، الجسم يضطرب ويتخبط، الدم ينفجر ولسانه يضطرب ببعض الحديث في فمه، ثم هدأ ذلك الجسد المضطرب، وسكن اللسان المتحرك، ويخف تفجر الدم.. حتى امتلأ الجو بســكون الموت، والسيد سامي قائم أمام الجثة كالشيطان قبل أن يعود أدراجه إلى مكان السيارة حيث السائق كان بانتظاره.

–58–

كادت ســـارية أن يغشى عليها من الأخبار الأخيرة التي جاء بها والدها، الهـــروب وترك كل شيء في مكانه، رفضـــت في البداية ترك الدار فآثرت الموت فيها ولكن ما ذنب ابنتها؟ ســـتكون كشـــجرة اقتلعت جذورها، فأقنعها الســـيد بأن العصيان الأخير للحكومة من قبل الشـــعب سوف يجر لهم ويلات الاعتقال والموت.. لأن الحكومة بدأت بشـــن اعتقالات عشوائية على رجال الدّين وستطوله لا محالة أيدي رجال الملك.. علاوة عـــلى ذلك فإن معصومة قد وشـــت لـ«جودت بيـــك» كل شيء رأته في البيـــت.. وأنها كانت تتنصت على أسرار والدها.. لم تتفوّه ســـارية بشيء ســـوى أنها أدلت بفكّها السفلي إلى الأرض، ربت على كتفها بحنو يحاول أن يُطمئنها بكلمات رنّانة:

ـ لا تقلقـــي فلنا دارٌ كبيرة في إيران، أكـــبر من هذه.. مرجعيات مهمة قد وفّرت كل شيء وسنكون بأمان بدعمٍ منهم.. ثقي في والدك يا ابنتي.

دفعهـــا برفق لكي تصعد إلى الأعلى وتلم متاعها لينطلقوا ســـاعة الفجر ويبتعدوا عن القرية إلى الأبد.

–59–

في اليوم التالي عندما حلّ الغروب وكاد الليل أن يسدل ستاره على القرية:

توّجه ـ جودت بيك ـ بسيارته إلى بيت السيد سامي..كان يقودها بسرعة عالية وقد تطاير الشرر في تلك العينين القاسيتين.. ترتعش أطرافه وكأن أسدًا غرفَ صدره ببراثنه ممزق القلب وأخرج أحشاءه، إنه الوقت المناسب لاستدراج السيد إلى إحدى المناطق الخالية وإفراغ طلق ناري في منتصف جبينه، كان يتصرف كالممسوس، صرعته الأخبار التي جلبتها تلك المشؤومة معصومة، وما أن يفرغ من السيد حتى يقضي على أمر حميدة.. كل شيء بأوانه.. كان يجاهد ليسحب نفسًا إلى رئتيه، وكان الوجه شاحبًا وكأنه فقد لحمه وبرزت عظام وجهه.. مملوء بدموية الغضب، وصل إلى المنزل ثم ترجل بسرعة من سيارته.. تمّم على سلاحه، بينما كانت الكلاب السائبة ترقبه بنظرات مدهوشة..كانت الكلاب جالسة في الساحة الخارجية للدار وكأنها مستأنسة لرحيل السيد، وفي كل لحظة كانت الريح الصفراء تهب فتثير التراب الجاثم على الأرض.. مد خطواته ليتجه صوب الباب.. ضربه بعنف، حتى اشرأبت الأعناق من البيوت المجاورة للطَرقات العنيفة، شبابيكها مزدحمة بنساء وأطفال يتابعون المنظر ولا يجرؤون على الخروج..

هذه كانت توصية السيد لهم قبل أن يترك المكان.. كان يعلم بأن يد الدولة ستطوله يومًا.

رحل السيد.. تصحبه عناية الله وآل بيت الرسول.. هكذا كانوا يتمتمون من وراء ضلفة الشُّباك.. يتمتمون بهمسات خائفة وقلقة.. وعيونهم لا تكاد تفارق مشهد الضابط الثائر.

لم يجرؤ أحد على فتح الباب ومنع ـ جودت بيك ـ من محاولة اقتحام البيت.. وعندما رأى الضابط بأن أحدًا لا يستجيب لطرق الباب.. رجع إلى الوراء وبدأ بركل الباب الخشبي القديم.. لم يفلح في كسر الباب فاستعان بمسدسه ليطلق رصاصة صوب أكرة الباب كانت كفيلة لفض قفل الباب وفتحه على مصراعيه.

عندما دخل الدار... كان السكون يُغلّفها إلا من صرير الهواء الذي يمر عبر الممرات في الداخل.. كانت كالمهجورة تسيطر على الداخل إليها الرعب.. مكانٌ بات موحشًا للغاية.. مسكونة تصرصر فيها الريح عبر النوفذ السوداء.. كأنّما تحرسها أرواح الموتى.. الظلام النسبي كان يضيف على الدار رهبة على رهبة تكاد تسيطر على مفاصل الضابط رغم شجاعته التي ولّت الآن.. أصدرت الأبواب الخشبية طقطقات خفيفة وكأنها تصرخ من الوحشة وتبكي صاحبها الذي غادرها.. الأرواح التي تسكن الدار بدأت تستيقظ غير مُرحبة بالزائر.. تبُث القشعريرة في نفسه وتسخر منه تارة وتنتحب حُزنًا تارة.. وكأنّ الحيطان بدأت تتكلم

وتثور.. بل كل مفاصل البيت بدأت تستنكر وجود الشخص العدو.. تمشّت الهمهمات في فراغ البيت.. فأشباحها بدأت تهمهم بكلمات مبهمة تَصدّع لها رأس ـ جودت بيك ـ.. انتفخت عروقه وكأن أيادي خفيّة تعاونت على نفخها.. انتفخت عروق الوجه فجأة وتلتها الرقبة والعينين وأنذرت بانفجار مريع.. حتى انبثق الدم من أذنيه وعينيه.. وكلما تأذى الضابط، زادت حدّة الهمهمات، أنذرت المجني عليه بالموت المُحتم.. لا رحمة في قوانينهم من يلِجها إما أن يكونوا معه أو عليه.

إن كانوا معه أسعدوه وأضافوا لحياته سعادة الدنيا التي يتمناها.. وإذا نقموا عليه حلّت عليه لعنة ما بعدها من لعنة.

تزايدت همهماتهم حتى بدأ جسده الهالك يرتج والدماء لا تتوقف عن التدفق بغزارة حتى طاح بثقله على الأرض.. ولم يعد ذلك الشاب القوي قويًّا ولا وسيمًا.. ولم تسكت الهمهمات حتى توقف الجسد عن الارتعاش وكأنه شاة أفرغت الدماء من جوفها.. ساد صمتٌ فجأة.. وتوقفت الرياح عن الصرير.

سكت كل شيء.. وبدأت أصوات أقدام الساكنين بالجوار بالاقتراب شيئًا فشيئًا.. حتى تجمهروا على جثته الهامدة على الأرض.. غارقًا في دمائه.. واقفين صامتين، ولا تعلو وجوههم سوى دهشة عظيمة.

–60–

أيلول 1933 ـ العاصمة السويسرية «برن»

وصل الملك فيصل الأول إلى العاصمة السويسرية «برن» طلبًا للاستشفاء.. حيث كان التعب باديًا عليه.. شاحب الوجه، منهك القوة.. نزل في فندق "bellevue" الفخم الذي يطل على بحر «الآر»..

وبالرغم من وضعه الصحي الحرج إلا أنه طلب أن يقابل الصحفيين، حيثُ كان يريد توضيح حقائق عن قمع ثورة الآشوريين على يد «بكر صدقي».

قلق ومنفعل، ولم تخلُ تصريحاته من شدة اللهجة، وضرب اليد بقوّة على الطاولة أثناء اشتداد انفعاله وهو يدلي بالتصريحات للصحفيين.. وحينها كان الملك قد تلقى سـيلًا من التهديدات من قبـل الحكومة البريطانية بسبب قمع الحكومة العراقية للثورة الآشورية.

قضى الملك 3 أيام من التعب والإرهاق الذي تزايد عليه، وتردّت حالته الصحية.. وفي 7 أيلـول وعندما أصيب الملك بآلام حادّة في بطنـه، حضر على عجل طبيبهُ الخاص وحقنهُ بحقنة تحـت الجلد، فأحسّ الملك بنوع مـن الراحة، وتدهورت صحته بعد منتصف الليل.

كان «نوري السعيد» و «رستم حيدر» و «تحسين قدري» حاضرين ويشهدون الملك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وقال آخر ما قال:

ـ أنا مرتاح لقد قمت بواجبي وخدمت الأمة بكل قواي، ليسير الشعب بعدي بقوة واتحاد.

«ثم شهق شهقته الأخيرة».

وثارت الشكوك عندما ذكر التقرير الطبي أن سبب الوفاة ناجم عن انسداد الشرايين الذي يسبب آلامًا شديدة في الصدر، بينما الملك كان يُعاني ليلتها من آلام شديدة في البطن.

في أيلول 1933: تم تتويج الملك غازي ملكًا على العراق بصفته وليًّا للعهد رغم محاولات نوري السعيد بإقناع رئيس الوزراء «رشيد عالي الكيلاني» استبعاد الأمير غازي لأنّهُ متخلف عقليًّا «حسب ادعائه» ولا يصلح لتولي المُلك، ودعوة الأمير «زيد» لتولي المُلك.

–62–

بعد شـــهور من وصوله إلى إيران.. اغتبط السيد لوفاة الملك ولكن تولي الملك غازي الحكم أثار ضغينته وأجلت رجوعه الذي كان يحلم به.. في حين كانت المرجعيات تهيئ له مقومات الزعامة، ولم يثنهم الشـــاه وعداؤه لرجال الدّين عن الســـير قدمًا لتحقيق مخططهم.. فتحرّك السيد سامي لنشر مبادئه الجديدة بين الناس وتصدير ظاهرة عدم الاستقرار إلى العراق.

******

بينما يبعثون الناس إلى النجف.. والاستمرار بتسريب الدّس السياسي إلى بغداد تحـــت غطاء الدّين، حتى انفجر العصيان ضد الحكومة مرة أخرى أرجعت الأوضاع إلى ما قبل ثورة 1920.. واستمروا بتحدّي الحكومة حتـــى اصطدموا بالجيش الـــذي يقوده «بكر صدقي» بالشـــيخ «خوام» فقضى على الحركة التي يتزعمها بسهولة.

أما السيد ســـامي فحاصره تهديد جماعات وأنصار السيد الحسيني الذين شـــكّوا بمقتله وضلوع الســـيد في الجريمة.. ولم يكن بدوره مهتمًّا لذلك الهراء كما كان يســـميه.. بل بلغ الغرور به أن يرفض التفاوض مع أنصار الحسيني والبدء بالنيل منهم بالبطش والغدر بهم.

–63–

كان الوقت بعد منتصف الليل عندما عاد إلى الدار من سـهرته المعتادة مع بعض الشـخصيات.. دخل حجرته وألقى عباءته عـلى الكرسي فوقف قليلًا يتأمل في الظلام.. وكأنه يردد صلاة صامتة.. لم ينتبه بأن شبحًا يحمل خنجرًا يختبئ خلف الستار.. قبل أن يتحرك نحو السيد حطّ يده على فمه وشدّ رأسه إلى الوراء ووضع باليد الأخرى الخنجر على قصبته الهوائية.. كان يطلق سبّةً في أذنه.. قبل أن يذوب النصل في رقبة السيد ويخرّ على الأرض وتُنحر رقبته.. كان القاتل لا يزال قابضًا بيمناه بإحكام على الخنجر المصقول بالدم وببلادة أخذ يردد:

ـ سيد!.. يا قذر.

كان القاتل يتنفس بسرعة ويرتجف قبل أن ينسـل من الشـباك المفتوح ظِلّ كلب أسود.. التقطت أذناه الدمدمة الخفيضة للغاية الأدنى من زمجرة.. كتهديد هامس.. لا يكاد يُسمع.. حتى وثب الكلب الشبح ليُطبق بفكّيه على عنقه مقتلعًا نصف حلق القاتل.. فاختنقت صرخات الرجل وتناثرت دماؤه على الجدران كالمطر الدافئ..

تألّقـت عينا الكلب في الحجرة المظلمة بفكّين أحمرين مبتلين قبل أن يثب من الشباك إلى حيث أتى..

تاركًا رجلين مخضبيْن بالدماء على الأرض.

تجدون المؤلفات كاملة للروائي رياض القاضي على أمازون
"RIYAD AL KADI'S" BOOKS ON AMZON

*****

- الصرخة «سموم وادي الأفاعي»/ رواية
- نسرين أبجدية العشق/ ديوان شعر
- نسرين/ خواطر
- نسرين/ مجموعة قصصية
- الحريق والرماد/ ديوان شعر
- حواء/ خواطر
- عصر النساء/ خواطر
- قارئة الفنجان/ خواطر
- كهرمانة والغزاة/ خواطر
- من يوميات رجل حزين/ خواطر
- قصائد ثائرة/ شعر
- نساء على كف الرب/ شعر
- أبجدية الحب/ ديوان شعر
- نسرينيات/ ديوان شعر
- إسطنبول/ خواطر
- اعترافات الحب/ خواطر
- المجزرة / خواطر وأشعار
- الوهم/ خواطر
- بغداد/ ديوان شعر وخواطر
- تأملات/ خواطر